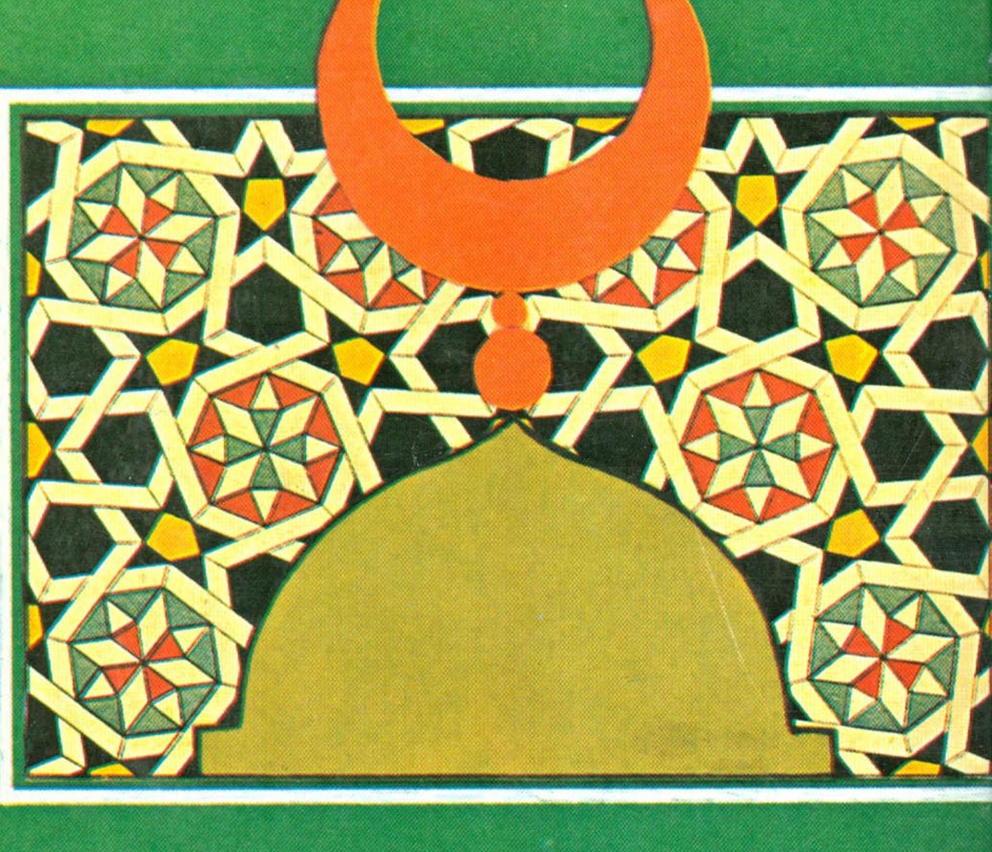
أحمد عبد الغفور عطّار

مِنْ نفحاتِ رمضان



مكّة المكرّمة

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

أحمد عبد الغفور عطّار

مِنْ نفحاتِ رمضان

مكّة المكرّمة

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

كتبت هذه الأحاديث مشاركة مني في برامج وزارة الإعلام لشهر رمضان المبارك من سنة ١٤٠١ هـ قدراً وتكريماً للكاتب الموهوب الأديب العالم البحاثة الفاضل الأستاذ الدكتور محمد عبده يماني وزير الإعلام الذي كرَّم الأدب والأدباء باسم الدولة عندما كان مديراً لجامعة الملك عبد العزيز، فنالني من تكريمه اختياري رائداً من رواد الأدب في هده البلاد، فلما أسند إليه منصب وزير الإعلام تضاعف منه التكريم الذي كان من بعض ثماره هذا الكتاب الذي أهديه إليه عرفاناً بما أسدى إليَّ من فضل كثير يجزيه الله عليه الخير كله تلقاء ما أفضل عليَّ.

أحمد عبد الغفور عطار

مكة المكرمة

٢٧ رمضان ١٤٠١ هـ

٢٨ يوليو ١٩٨١ م

مقـدّمة

شاركت في برامج وزارة الإعلام لشهر رمضان من سنتنا هذه سنة ١٤٠١ هـ بثلاثين حديثاً، أذيع في كل يوم من أيامه المباركة حديث كانت جريدة «عكاظ» تنشره يوم إذاعته، ثم جمعت كل تلك الأحاديث الثلاثين في كتاب بعد أن ضممت إليها بضع كلمات هذه عناوينهن:

أ- أهلاً برمضان.
ب- توحيد أول رمضان (٢).
ج- عودة إلى توحيد أول رمضان.
د- فريضة الصوم على الحيوان.
هـ- رمضان في مكة المكرمة.
و- شهادة مردودة وفتوى مقبولة.
ز- مُسَحِّر رمضان.
ح- موائد رمضان.

وكلهن مكتوبات حديثاً إلا «توحيد أول رمضان (٢)» و«موائد رمضان» أعاد الله هذا الشهر الكريم على المسلمين جميعاً باليمن والخير والبركات والعزة. آمين.

أحمد عبد الغفور عطار
مكة المكرمة

الخميس: غرة رمضان ١٤٠١ هـ
١٩٨١/٧/٢ م

أهلاً برمضان

نعم، أهلاً برمضان!.

نعم، نستقبل شهر القرآن بالحفاوة والترحاب، لأن ذلك حقه دون مراء ولا خلاف بين المؤمنين جميعاً.

ألا يرحب الإنسان بمن يقدم عليه مصحوباً بالخير والبركة والنعيم في دنياه وأخراه؟

بلى، إنه يستقبله بحفاوة لا مزيد عليها إلا إذا كان هناك قادم أقرب إلى نفسه منه، أما إذا لم يكن ثَمَّ من هو أقرب منه فلا مزيد على تلك الحفاوة، كما يتقبل منه ما يصحب من الخير والبركة والنعيم بالشكر الذي لا شكر يدانيه أو يشبهه، لأنه شكر يصدر من القلب يَصَّعَّدُ إلى خالق الأرض والسماء الذي أعاد القادم مثقلاً بهداياه من نعم الله جل جلاله.

نستقبل شهر رمضان بما هو أهله من الحفاوة والسعادة

والفرح، لأن الله بفضله وكرمه أتاحه لنا حتى نتزود وندخر في سويعات ما يكفي لأن يكون زاد العمر كله.

أليس فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر؟ بلى، وألف شهر هذه أكثر من شهور عمر الإنسان.

ولا تقتصر الفرحة بالقادم الكريم على بني الإنسان وحدهم، بل يشاركهم فيها الحيوان والنبات والجماد، وكل ما وهبه الله للإنسان المسلم المؤمن يشاركه هذا الفرح السعيد.

البيوت والأسواق والمساجد تبتهج وتتزين، والحركة تزداد، ونعم الله تفيض في الأسواق يأخذ منها الناس ما يشتهون، وعطاء الله يتنزل في المساجد وفي كل مكان يتناولونه شاكرين حامدين.

إن المؤمنين يؤمنون بأن دعاءهم مستجاب. ويؤكد إيمانهم هذا بمد أيديهم يرفعونها وكأنهم يتناولون بها ما ينزله الله عليهم من نعمه، فإذا انتهوا من تناول ذلك رفعوا أكفهم إلى وجوههم وأفواههم كأنما يكررون في ثقة لا حد لها أنهم تناولوا بأيديهم ثمار الدعاء، وأبصروها وشموها وطعموها.

إن الصائمين يشعرون بالفرحـــة لأنهم أطاعوا الله، ويضفون هذه الفرحة على وجودهم الذي يشاركهم إياها.

حتى الصحف تشارك أصحابها الصائمين فتتغير هي أيضاً مثلهم. فتمتلىء أنهرها بخير الكلام، ونشهد في صفحاتها آيات من كتاب الله، كما تتلألأ فيها جواهر كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتصوم عما يسخط الله، وتكثر في سطورها أسماء الله الحسنى، كما تتدفق منها الصلاة والسلام على نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم.

فلا غرابة أن نستقبل الشهر الكريم بالحفاوة والتجلة والتكريم، لأن كرمه يفيض علينا بغير حساب، حتى إن أبواب السماء لتتفتح لتخرج إلينا الرحمات والنعم فتلتقي الأرض مع السماء في البهجة والسرور.

وإن قلمي يأبى إلا أن يسعد بأن يشارك صاحبه والمسلمين في الفرح الغامر باستقبال رمضان، وإحياء لياليه بالقيام، ونهاره بالصيام، فيكتب كل ليلة كلمة تصدر بجريدة (عكاظ) صباح كل نهار.

وهـا هوذا القـلم يشارك سائـلاً الله العلي العظيم[1] التوفيق. ومهنئاً المسلمين بشهر الصوم المبارك. متمنياً لهم الخير وحسن الثواب.

---

(١) في مطلع الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ م أذاعت بياناً جاء فيه « العلي القدير » وإذا الكتاب والملوك والعلماء والرؤساء يقلدونها بدون بصر فيقولون مثلها: « العلي القدير » والصحيح ما جاء في قول الله وهو « العلي العظيم » و « العلي الكبير » لأن الله أعلم بما يحسن أن يوصف به أو يسمى، فهو لم يقرن « العلي » بالقدير وإنما قرنه بالعظيم أو بالكبير، لأنها أصلح أسمائه الحسنى بأن يقترن بالعلي.

هلال رمضان

ما يزال العالم الإسلامي مختلفة أقطاره في تحديد أول شهر رمضان مع تقدم العلم وآلات الرصد، وتبع هذا الاختلاف اختلافُ يوم عيد الفطر.

وقد كان الناس في بلادنا مختلفين في تحديد أول رمضان، فمثلاً كان أهل مكة المكرمة يختلفون مع سكان جدة التي لا تبعد عنها إلا بحوالى خمسين ميلاً، وقد تختلف مكة وجدة عن الطائف التي تبعد عن مكة بحوالى سبعين ميلاً.

وإلى عهد قريب بلغ الخلاف بين الحجاز وباكستان في تحديد أول رمضان ثلاثة أيام فصام الحجاز - مثلاً - الجمعة، وصامت باكستان الأحد.

والحق، إن رسول الإسلام محمداً صلى الله عليه وسلم قال: «صوموا لرؤيته وأَفْطِرُوا لرؤيته» ونحن مربوطون في

صيامنا وكثير من فرائضنا بالقمر ، لأنه أيسر علينا في التفرقة بين منازله. ويسهل علينا إدراك أوائل الشهر وأواسطه وأواخره، بل يستطيع الأمي العامي التمييز بين الليالي بالقمر ، ولهذا ارتبطت فرائض معدودات بالقمر حتى صار تقويمنا الهجري تقويماً قمرياً.

ولهذا ارتبط بعض أركان الإسلام وكثير من الأحكام بالقمر ، فمن الأركان: الصوم والحج، ومن الأحكام: الرضاع وعدة الطلاق ومدة الإيلاء حتى يستطيع من لا علم عنده إدراك هذه الأحكام والفرائض.

وإذا تيسر لمسلم الصوم ثلاثين سنة دراكاً يكون قد صام في جميع أجزاء السنة وفي مختلف الأجواء والفصول.

فارتباط هذه الفرائض والأحكام بالقمر الذي تسهل رؤيته وتمييز الشهر به حتى أطلق في لغة القرآن على القمر لفظ الشهر بدليل قول الله تعالى ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي من شهد القمر ورآه.

وإن آلاف المدن والقرى لا ترى ميلاد القمر في ليلته الأولى، لأن مولده يتم عند اقتران الشمس والقمر ، وحينئذ لا يكاد يرى القمر ، وإن كان في وسع آلات الرصد المتطورة

المتقدمة ضبط هذا الميلاد بدقة، بل يمكن تحديد أول الشهر إلى سنوات كثيرة قادمة.

وأما وقد وصل الإنسان إلى القمر فقد استطاع العلم الحديث أن يعرف عن القمر ما كان خافياً على البشر منذ كانوا حتى عهد قريب. ولم يعد عسيراً أن يدرك الإنسان بوساطة العلم الحديث مولد القمر وتحديده تحديداً دقيقاً وصحيحاً.

وما أكثر السنوات التي صمنا بالمملكة العربية السعودية برؤية اثنين من قرية، فكانت المدن وآلاف القرى والمساكن تصوم برؤيتها، وتبعنا بعض الأقطار إذ صامت لرؤية المملكة السعودية.

وفي بضع السنوات الأخيرة تقاربت أقطار العروبة والإسلام في تحديد أول رمضان، وقَلَّ الخلاف الذي ما يزال باقياً. لأن أقطار المسلمين لم تتفق فيما بينها على توحيد أول رمضان الذي يمكن في هذه الأيام، إذ يسَّر العلم الحديث تحديد مطلع هلال أول شهر رمضان بوساطة آلات الرصد الدقيقة الالكترونية.

وليس الاستشهاد بها بمحظور ولا يناقض حديث الرؤية، ففي صحيح الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا، مرة تسعة وعشرين، ومرة ثلاثين».

فاعتماد الرؤية على القمر، وقد أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب الرؤية وهو شيوع الأمية وندرة من يحسب ويكتب في وقت هذا الحديث الشريف، وإن كان لا ينفي وجود الكاتبين والحاسبين فقد كان الكاتبون بمكة قلة، وفي السابقين إلى الإسلام من كانوا يكتبون كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم. بل كان من النساء من يكتبن في ذلك العصر الذي لم يخل من أهل الحساب.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يغفل الحساب. فعن ابن عباس رضي الله عنهما - كما جاء في موطأ الإمام مالك - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رمضان فقال: «لا تصوموا حتى تَرَوْا الهلال ولا تُفْطِروا حتى تَرَوْه، فإن غم عليكم فأكملوا العدد ثلاثين».

وفي حديث آخر - بالموطأ - عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الشهر تسع وعشرون، فلا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غُمَّ عليكم فاقْدُروا له».

فإكمال العدد ثلاثين يتمشّى مع الرؤية والحساب، وكذلك القدر من قوله صلى الله عليه وسلم: « فإن غُمَّ عليكم فاقْدروا له ».

وفي فتح الباري ١٢٧/٤ في شرحه لحديث: « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » يقول مصنفه رحمه الله: « والمراد بالحساب هنا حساب النجوم وتسييرها. ولم يكونوا يعرفون من ذلك أيضاً، إلا النزر اليسير، فعلق الحكم بالصوم وغيره بالرؤية لرفع الحرج عنهم في معاناة حساب التسيير، واستمر الحكم في الصوم ولو حدث بعدهم مَنْ يعرف ذلك، بل ظاهر السياق يشعر بنفي تعليق الحكم بالحساب أصلاً، ويوضحه قوله في الحديث الماضي: « فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين » ولم يقل: فسلوا أهل الحساب، والحكمة فيه كون العدد عند الإغماء يستوي فيه المكلفون فيرتفع الاختلاف والنزاع عنهم ».

وفي شرح الموطأ للزرقاني[1] ٣٩٧/٢: « قال ابن سريح: معناه قدروه بحسب المنازل، وكذا قاله ابن قتيبة من المحدثين، ومطرف بن عبد الله من التابعين.... ونقل الباجي هذا التفسير عن الداوودي وقال: لا يُعْلَم أحد قاله

(١) طبع مطبعة مصطفى الحلبي، الطبعة الأولى سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م).

إلا بعض أصحاب الشافعي أنه يعتبر في ذلك بقول المنجمين ».

ويقول الزرقاني: « ونقل ابن العربي عن ابن سريح أن قوله: « فاقدروا له »خطاب لمن خصه الله بهذا العلم، وأن قوله: « فأكملوا العدة » « خطاب للعامة ».

وفي الزرقاني ٢/٣٩٩: « ولذا لما فسره مطرف بن عبد الله بن الشخير من تابعي البصرة العلماء الفضلاء بنحو قول ابن سريح أنه إذا غُمَّ يستدل بالنجوم ويُبَيَّتُ الصوم ويجزيه، قال ابن سيرين: « كان أفضل له لو لم يقله ».

وكلمة « فاقدروا له » في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم متصل بالحساب، ويظهر مما ذكره أن الاعتماد على الحساب في إثبات دخول رمضان قول عرف قبل تقدم العلم واختراع آلات الرصد الحديثة المتطورة. التي يستشهد بها مع الرؤية.

والإسلام لا يتجهم للعلم، بل يرحب بما يَتَفَتَّقُ عنه العقل البشري مما يفيد في ضبط مواقيت العبادات كالصلاة والصوم والحج.

وقبل ثلاثين سنة دعوت إلى توحيد أول رمضان في كل

أقطار المسلمين بعد أن تيسر لنا تحقيق هذه الدعوة التي أكدتها ببحث في جريدة «عكاظ» عندما كانت ملكاً لي وكنت رئيس تحريرها نشرته بأحد أعدادها الصادرة سنة ١٣٨٣ هـ وأعدت نشره في كتابي «الإسلام طريقنا إلى الحياة» المطبوع سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤م).

وفحوى الدعوة أن نقبل شهادة من يعملون في آلات الرصد الحديثة المتطورة الدقيقة نقوي بها شهود الرؤية إذا وجدوا، وإلا أثبتنا بها دخول رمضان.

توحيد أول رمضان

- ١ -

في أواخر أحد شهور شعبان منذ ثلاثين سنة كان الملك الشهيد فيصل رحمه الله في القاهرة. فكنت أنا وبعض السعوديين في زيارته. ولما كنا ننتظر شهر رمضان المبارك فقد كان الحديث في إثبات رؤية هلال رمضان والاستعانة بالمراصد في قبول هذا الإثبات.

وذهبنا إلى أن الإسلام لا يتجهم للعلم. بل يحث عليه، ويدفع إليه دفعاً، لأن ما يثمره نافع، فالساعات قد أفادتنا في تحديد أوقات الصلاة، كما أفادتنا «التقاويم» في تاريخ الأيام والأسابيع والشهور، وما أكثر ما أفادنا به العلم في حياتنا العصرية التي ازدحمت بآلاف المخترعات.

وكان رأي الملك الشهيد رحمه الله الاعتماد على الرؤية مع اعتبار المراصد من الرؤية، لأن المراصد تقوم بعمل العين

المجردة، والمراصد دون شك أقوى من العين وأنفذ بعداً.
وقال رحمه الله: أعتقد أن الإسلام لا يحرم ثمار العلم أبداً.
بل كل ما هو محرم إنما هو بنص ثابت. وما لم يأت النص
بتحريمه فهو حلال ومباح.

وقد فكر بعض سلفنا الأقدمين في الانتفاع بحساب
النجوم، لولا خوفهم من الحدس والتخمين اللذين يجب
استبعادهما في ضبط أوقات الفرائض والعبادات، وكلمة
التنجيم والمنجمين منفِّرة، ولهذا لم يبارك السلف ما ذهب
إليه بعضهم من رفع الحظر عن الانتفاع بالحساب في إثبات
هلال رمضان.

وتجب التفرقة بين التنجيم الذي يدخل فيه الحدس
والتخمين والكذب، وبين علم الفلك الذي يستكبر على
الكذب والخرافات، ويبحث في الأجرام السماوية من نجوم
وكواكب ومذنبات وشهب ورجوم. وذلك من حيث نظامُ
دورانها وأبعادها وتركيبها والقوانينِ التي تفسِّر الظواهر
الفلكية المختلفة، ولهذا العلم العظيم فروع مثل علم الفلك
النظري. وعلم الفلك الرياضي، وعلم الفلك الطبيعي الذي
يبحث في مادة الأجرام السماوية. وعلم الفلك العلمي الذي

يعنى بآلات الرصد وطرق استخدامها[1]، إلى غير ذلك من فروع علم الفلك.

وعلم الفلك بفروعه المختلفة يزيد في إيمان الإنسان، لأنه يقفه على عظمة الله التي يكشفها هذا العلم العظيم الذي من بحوثه ضبط الأوقات ومعرفة الأهلة معرفة صحيحة ومضبوطة ودقيقة.

وليس من العسير في هذه الأيام التي طَفَرَ فيها علم الفلك بكل فروعه طَفْراً بعيداً مذهلاً أن يضبط ميلاد كل شهر قمري بعد أن اقترن بطفوره التقدم المدهش في المجاهر (التلسكوبات) وآلات الرصد.

وقد اهتمت المملكة العربية السعودية والأقطار العربية والإسلامية بمسألة أول رمضان رجاء توحيده في كل أقطار الإسلام، وعقدت لهذه المسألة مؤتمرات مثل مؤتمر ماليزيا ومؤتمر تركيا ومؤتمر تونس الأخير الذي أقيمت بها الدورة الثالثة للجنة التقويم الهجري الموحد، وجاء في كلمة الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة مفتي تونس قوله:

---

(١) دائرة المعارف الحديثة، تأليف أحمد عطية الله، مكتبة الأنجلو بالقاهرة، سنة ١٩٥١ م.

« وإذا كانت الأقطار الإسلامية بالأمس في مجال الهيئة والميقات والحساب والتقدير للنجوم والأفلاك ومنازلها - وهو العلم الذي أخذ به رياضيو العالم الإسلامي ورجال الفلك لديه من أجل ضبط مواقيت العبادة وتحديد أوائل الشهور القمرية قد اختلفت بسبب ما قدمناه آنفاً مبررين ذلك باختلاف المطالع فجاءت التقاويم الهجرية تبعاً لذلك مختلفة متباينة، فالتقويم القطري لا يوافق تقويم أم القرى، والتقويم المصري لا يجانس التقويم المغربي فإن هذا الواقع بالأمس قد أضحى مردوداً، ومنطق جميع الأشياء في هذا العصر وبين المسلمين يناقضه ويبطله، والواجب علينا أن نأخذ بما يؤكد وحدتنا التي هي من إرادة الله إلخ »[٢].

وتحدث الشيخ أحمد حماني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر وممثلها في الدورة الثالثة، ومما قال[٣]:

« لقد كان المسلمون يختلفون في التقويم القمري، ويختلفون في الأعياد وفي الصيام وفي التواريخ التي لا ينبغي

---

(٢) انعقدت الدورة هذه بتونس يوم ١٢ و١٣ جمادى الأولى سنة ١٤٠١ هـ (١٨ و١٩ مارس ١٩٨١ م).

(٣) نقلنا الشاهد من مجلة « الهداية » التونسية، العدد ٥، رجب وشعبان ١٤٠١ هـ.

أن يختلف فيها، وكان لهم مبرر هو بُعْد المسافات، وتعذر وصول الأخبار، ولكن اليوم لا يمكن أن نلتمس لهم عذراً ».

ويقول: « أفبعد هذا نختلف خصوصاً إذا كان اختلافنا في شؤون الدين، كيف يسوغ أن يقف الجزائري والتونسي في غار الدماء يتصافحان، هذا صائم ويرى أن صيامه واجب، وهذا مفطر، ويرى أن صيامه عصيان.

« كذلك الشأن بالنسبة للأردني والسعودي والكويتي والعراقي، ثم بعد ذلك يكون هذا صائماً وجوباً، وهذا مفطر وجوباً، فإذا جاز أن يكون ذلك قديماً فلا يجوز أن يكون في هذا العصر، وهذا ما فهمه المسلمون يوم تخلصوا من الاستعمار .

« فلقد كنا في بلاد المغرب: تونس صائمة اليوم، والجزائر غداً، والمغرب بعد غد، ثلاثة أقطار متجاورة، مختلفة في صيامها، وسبب هذا المستعمر الذي يريد ألا نتحد حتى في الصيام.

« فلنفكر في الوسيلة التي توحِّد العالم الإسلامي حتى يصوموا في يوم واحد، ويفطروا في يوم واحد.

« وقد بحث هذا مؤتمر ماليزيا وجاء بأشياء مفيدة جداً، منها: أن أقصى نقطة في الشرق الإسلامي وأقصى نقطة في الغرب منه سبع ساعات، وحينئذ يمكن أن تجتمع الأمة الإسلامية في ليل واحد، وما دام كذلك فإن الهلال إذا رُئِيَ في المغرب الأقصى فإنه يجب على الإندونوسيين أن يصوموا.

« صحيح أن الرؤية هي الأصل، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » فالرؤية محققة، ولكن كيف نتحقق من هذه الرؤية؟ يقول مؤتمر ماليزيا: إذا تطرق الشك إلى من قال: « رأيت » يُكَذَّب.

« حينئذ نحن لا نرفض العمل بالرؤية وإنما نرفض رؤية من قال: رأيت.

« وهذا ما جرى في عهد الإمام مالك.

« سئل الإمام مالك رحمه الله: ما تقول في شهادة عدلين يريان الهلال في المصر الواحد، ولا يراه غيرهما، ولا سحابة في السماء، فقال رحمه الله: هما شاهدا زور، يصام لرؤيتهما، وينتظر بهما آخر الشهر، فإن رُئِيَ الهلال آخر الشهر صدقا، وإلا تعين الصيام يوم العيد.

اليوم عندنا وسائل نستطيع أن نكذبهما حينما يقولان: رأينا، فنقول لهما: كذبتما، لأن العالم الفلكي يقول: الهلال يغيب قبل الشمس أو معها أو بعدها بقليل، ومحال أن يرى، فإذا قال القائل: رأيت، فقد كذب .

ففي هذه المؤتمرات شعروا بالحاجة إلى توحيد أول رمضان ليتفق المسلمون أنى كانوا في صيامه، وما شعروا به شعور المسلمين في كل مكان.

وقد سبقنا إلى ما رأت هذه المؤتمرات بحوالى عشرين عاماً. ورأينا الاعتماد على آلات الرصد التي لا تناقض الرؤية، باعتبار علماء تلك الآلات شهود رؤية، فيصوم بها المسلمون جميعاً. كما اتفق المسلمون في العام الماضي في الصيام إلا قطراً أو قطرين كما اتفقوا في عيد الفطر، فقد عَيَّدَ المسلمون في أمريكا مثل مسلمي البلد الأمين وكل أقطار المسلمين إلا القطر أو القطرين اللذين شذا في بدء الصيام.

توحيد أول رمضان

- ٢ -

[نشرت هذا المقال سنة ١٣٨٣ هـ بجريدة «عكاظ» عندما كنت مالكها ورئيس تحريرها، ثم أعيد نشره في كتابي «الإسلام طريقنا إلى الحياة» المطبوع بمطابعي بجدة سنة ١٣٨٤ هـ وتلقيت رسائل من بعض القراء في بلادنا وفي أقطار العروبة والإسلام تؤيد ما رأيت.

ومنذ بضع سنوات أخذت مؤتمرات إسلامية تعقد من أجل «توحيد أول رمضان» رجاء أن يصوم المسلمون في وقت واحد، ويفطروا في يوم واحد، ويُعيِّدوا في يوم واحد، لتكون فريضتهم هذه أظهر للوحدة التي قصد إليها الإسلام من أركانه.

فلعل الله سبحانه وتعالى يوفق لما يصمد له المخلصون؛ فيوحد المسلمون يوم صومهم، ويوم فطرهم، ويوم عيدهم، ويوم حجهم، ويوم أضحاهم.

وهأنذا أعيد نشر هذا المقال في هذا الكتاب للتاريخ والذكرى].

أول يوم من رمضان غير موحد في العالم الإسلامي، بل غير موحد في بلدان العالم العربي المتجاورة، ويتبع الاختلاف في تحديد غرة شهر الصوم اختلاف في أيام آخر، كعيد الفطر، وعيد الأضحى، وأشد من ذلك هو الاختلاف في تحديد يوم عرفة حيث يقف الحجاج في يوم التاسع من شهر ذي الحجة.

وإذا نظرنا إلى غاية الإسلام من أركانه الخمسة وجدنا أن من أعظمها: الوحدة العامة بين المسلمين جميعاً، الشهادة تجمعهم قبل كل شيء، والصلاة توحد صفوفهم، والزكاة تربط بين الموسرين والمعسرين برباط المحبة والوفاء. والصوم تكرار للأركان الثلاثة السابقة وتضخيم لها وتعويد النفس صدق العزيمة وتقوية الإرادة وربط الظاهر بالباطن.

والركن الخامس - وهو الحج - جمع شمل المسلمين في صعيد واحد ليأتمروا فيما بينهم فيما فيه صلاح المسلمين عامة.

فكل ركن من أركان الإسلام مظهر من مظاهر الوحدة العامة الشاملة، واجتماعها اجتماع لكل القوى والطاقات الإسلامية.

وإذا كنا في ركنين من أركان الإسلام لا نتفق على تحديد أول رمضان والتاسع من ذي الحجة، فإن في هذا

الاختلاف ما لا يتفق مع « الوحدة » التي يحققها الإسلام من أركانه.

ركنان من أركان الإسلام يقع فيهما اضطراب بين المسلمين، فقد يصوم أهل قطر يوم الجمعة ويصوم أهل قطر آخر يوم السبت أو الخميس، وفي هذا اختلاف غير محمود.

وهذا الاختلاف الذي أراه غير حميد، وهذا الاضطراب في تحديد غرة رمضان ليس بجديد على المسلمين، فهو قديم منذ فرض الصوم في الإسلام « صوموا لرؤيته ».

فمن ير الهلال وجب عليه أن يصوم، وإلا أكمل شعبان ثلاثين، ثم يبتدىء في الصوم باعتبار غرة رمضان بعد تكملة شعبان ثلاثين.

وهذا ولا شك من اليسر الذي يتوخاه الإسلام في أداء الفروض والقيام بالواجب، غير أن توحيد أول رمضان لا يخالف اليسر الذي يمتاز به ديننا الحنيف.

وإذا كانت الظروف أُجبرت على اتخاذ ذلك الموقف فإن هذه الظروف نفسها تحملنا على اتخاذ موقف موحد.

كانت المواصلات صعبة كل الصعوبة، ولم تكن البلدان متصلة بعضها ببعض باللاسلكي والتلفون، ومن هنا كانت

استحالة ربط الأمة الإسلامية بيوم موحد في الصيام.

بل كان الاختلاف في تحديد غرة رمضان يقع بين بلدين متجاورين مثل مكة المكرمة وجدة- على قرب المسافة بينهما - لصعوبة المواصلات وفقدان الهاتف السلكي واللاسلكي قبل استعمالهما.

وإذا جاز لنا في المملكة العربية السعودية أن تصوم كل قراها ومدنها برؤية قرية- كما يحدث غالباً أو دائماً- أو برؤية اثنين في الصحراء، فلماذا لا يجوز أن تتسع دائرة الانتفاع بهذه الرؤية فيصوم العالم الإسلامي كله لرؤية بلد.

إن العلم قد ربط بين الأمم، فأصبحت وكأنها أسرة واحدة، بالنسبة للعالم القديم، بل أقرب من الأسرة التي تسكن مدينة كبيرة، وذلك بوساطة الهاتف.

وما دام العلم نعمة من نعم الله أفضل بها على الإنسان فإن من الطبيعي أن نفيد منها في عباداتنا وأعمالنا جميعها.

وهذا العلم قد ابتكر وسائل دقيقة لرصد الهلال بحيث لا تخطئه الدلالة عليه، وبحيث تستطيع تحديد مدى ظهوره في أي ليلة بالدقيقة والثانية، تحديداً لا عسر فيه ولا مشقة.

وما دام الأمر قد أصبح سهلاً بحيث لا مجال للاختلاف

فيه ولا مدعاة به للشك فإن ابتغاء الوحدة يجبرنا على أن نستعين بالمرصد في الصوم تحديداً لغرة رمضان حتى يتفق المسلمون في صيام أول يوم منه.

إن المرصد يستطيع تحديد غرة الشهر، وتحديد ميلاد قمرها بدقة بالغة، بالدقيقة والثانية، وأقل من الثانية.

والمرصد أقوى من العين المجردة.

وما دام كل ذلك حقاً وواقعاً، وما دامت الهواتف من لاسلكي وتلفون وراديو جعلت العالم كله وحدة، فلماذا لا نعتمد المرصد في تحديد أول رمضان؟ ثم لماذا لا نعمم الخبر في الأمة الإسلامية بوساطة الهواتف فيصوم المسلمون جميعاً في أول رمضان في يوم واحد؟

وإن حكمة الإسلام أو جوهره الوحدة في المظهر والمخبر، ومن هذه الوحدة توحيد المواقيت في ركنين من أركان الإسلام حتى نقضي على الاختلاف والاضطراب اللذين يحملان على البلبلة والتفكك، بل إن صحة ركن الصوم وركن الحج لا تتم مع هذا الاضطراب.

وعلى سبيل المثال نذكر يوم الوقفة في السنة الماضية، فقد وقف المسلمون يوم الجمعة باعتباره التاسع من ذي

الحجة، في حين أن بعض البلدان الإسلامية مثل تونس اعتبرت الخميس تاسع ذي الحجة، واضطرب بعض الحجاج العائدون إلى بلادهم عندما علموا بهذا الاختلاف، ومع أن علماء أجلاء أفتوهم بصحة حجهم ويوم وقفتهم إلا أن شيئاً بقي في بعض النفوس.

واختلف المسلمون في العام الماضي في تحديد غرة رمضان وغرة شوال وغرة ذي الحجة ويوم عرفات، فاضطربوا في عيد الفطر وفي عيد الأضحى كما اضطربوا في تحديد أول رمضان وأول ذي الحجة.

كل هذا الاختلاف بسبب اكتفاء كل قطر برؤية الهلال، وهذا الاضطراب نجمت عنه الفرقة.

وما دمنا أجزنا أن تصوم مكة المكرمة والمدينة المنورة والرياض وجدة وكل المملكة برؤية قادمة من تبوك أو الدوادمي - مثلاً - برؤية قرية من القرى أو خدر من الخدور، فلماذا لا يجوز اتحاد العالم الإسلامي في تحديد أول رمضان؟

وإن غاية الإسلام وحدة المجتمع الإسلامي كله، وهو اليوم أشد حاجة إلى هذه الوحدة، وإن في جمعه على ميقات واحد في الصوم والحج تحدده المراصد أو غير المراصد

تحقيقاً لهذه الغاية المثلى، وهي توحيد المسلمين أجمعين في المواقيت التي يتبعه توحيدهم في المشاعر والعبادات.

هذا رأي أعرضه للعلماء رجاء أن يبحثوه، فإذا كان حقاً دعوا إليه وإلا رجعت عنه إذا كان فيه ما يخالف الإسلام.

وهو رأي سبقني إليه بعض علماء مصر، وقرأته في بعض صحفها منذ سنوات فاقتبست منه ما رأيته صواباً.

والله الموفق لما نصمد إليه[1].

---

(١) نشر في جريدة «عكاظ» سنة ١٣٨٣ هـ.

عودة إلى توحيد أول رمضان

علق الأستاذ عبد الله إبراهيم على بحثي المنشور بجريدة « عكاظ » تحت عنوان « توحيد أول رمضان » ونشر تعليقه بجريدة « عكاظ » وجاء في قوله:

« والأستاذ العطار يؤيد ما دعت إليه هذه المؤتمرات حول توحيد الأهلة وبخاصة توحيد أول رمضان ».

ونحن – والحمد لله – قد سبقنا هذه المؤتمرات في الدعوة إلى توحيد أول رمضان، وعلى سبيل المثال بحث نشرته في جريدة « عكاظ » عندما كانت ملكاً لي تحت عنوان « توحيد أول رمضان » وكان تاريخ نشره بها سنة ١٣٨٣ هـ وأعدت نشره في كتابي « الإسلام طريقنا إلى الحياة » الذي طبع سنة ١٣٨٤ هـ.

فأنا أيدت دعوتي بما انتهت إليه هذه المؤتمرات، واستشهدت بأقوال بعض العلماء الذين مثلوا دولهم فيها،

فنحن من السابقين في الدعوة إلى توحيد أول رمضان قبل هذه المؤتمرات بسنين.

ويقول الأستاذ عبد الله إبراهيم: « وأحب أن أذكر بأن لكل بلد مطلعه، ولا حاجة لأن يصوم الأندنيسيون برؤية أهل المغرب ».

ونحن لم يفتنا العلم بأن لكل بلد مطلعه، فقد جاء في البحث الذي علق عليه ما يشير إلى منازل القمر.

ومن الآراء التي عرضت في مؤتمر ماليزيا رأي أحد العلماء الذي ذهب إلى وجوب صوم الأندنوسيين إذا رُئِيَ الهلال في المغرب. ولم يقرر الوجوب جزافاً، بل كان عن دراسة آية في الدقة، كان من ثمارها ونتائجها هذا البرهان وهو أن بين أقصى نقطة في الشرق الإسلامي وأقصى نقطة في الغرب منه سبع ساعات، وحينئذ يمكن أن تجتمع الأمة الإسلامية في ليل واحد.

ولم يفت هؤلاء الباحثين المطالع، بل كان من أيسر معلوماتهم معرفة ما يلتحق بالبديهيات، بدليل ذهابهم إلى إمكان إجتماع الأمة الإسلامية في ليل واحد.

وما دام هذا الاجتماع ممكناً بوحدة المطالع التي يجمعها

ليل واحد فإنهم حسبوا حساب اختلاف كل بلد عن سواه حتى انتهوا إلى ضبط فارق الزمن بين أقصى نقطة في الشرق الإسلامي وأقصى نقطة في الغرب، وهو فارق المطالع التي تختلف باختلاف البلدان.

وأما مراجعته لصحيح الإمام مسلم باب «لكل بلد رؤيتهم» فتحسب في مزايا سعة إطلاعه التي تجاوزها أولئك الأعلام، ولم يفتنا الإطلاع على ذلك الباب من صحيح مسلم، بل اطلعنا عليه وعلى ما جاء في هذا الباب في أمهات كتب الحديث، ثم أبدينا رأينا.

وسألني الكاتب في تعليقه قائلاً: «لماذا شذ من شذ في الصوم والفطر؟» ولكنه لم ينتظر جوابي، فأجاب بقوله: «أعتقد أن للسياسة دخلاً في الأمر».

وأنا عندما قلت في بحثي الذي علق عليه: «اتفق المسلمون في العام الماضي في الصيام إلا قطراً أو قطرين» ما كان السياق يقضي ببيان سبب خروج بعض الأقطار الإسلامية عن ذلك الاتفاق، لأنه لا يخفى على ذوي الفطنة والبصر.

وأجيبه الآن على سؤاله: إن عدم اتفاق بعض الأقطار مع الأقطار الأخرى التي مثلت ما يشبه الإجماع لم يكن

سببه سياسياً، بل كان دينياً، وهو التقيد بالرؤية، إذ لم يثبت دخول رمضان لدى القطر الذي لم يصم مع غيره برؤيته.

أما شاهده من صحيح الإمام مسلم في إقرار اختلاف المطالع بين البلدان إذ اختلف يوم صوم المدينة المنورة عن يوم الشام الذي أيده بقول الشيخ عبد الله بن حميد رئيس مجلس القضاء الأعلى: «إن لكل بلد رؤيتهم كما هو المعهود في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن خلفائه» شاهد صحيح، إلا أننا لا نتبع ذلك في أيامنا هذه، لأن سهولة المواصلات التي قربت المسافات الشاسعة جعلت بلداناً كثيرة تتفق في أول رمضان برؤية أحدها.

ولو كان في عهد ابن عباس ومعاوية ما في عهدنا من وسائل الاتصال بالبرق والهاتف لأمكن التوحيد بين المدينة والشام في أول رمضان.

وكل بلد في المملكة العربية السعودية لا يصوم برؤيته، ولو صام برؤيته لاختلف بعض بلدان المملكة عن بعض.

ونحن أهل مكة المكرمة حرسها الله وحرسنا لم نصم سنوات كثيرة برؤية أحد من أهلها، بل صمنا كثيراً برؤية بلد أو قرية تبعد عنها مئات الأميال.

وإذا أمكن للمملكة السعودية أن توحد في كل مدنها وقراها وحاضرتها وباديتها أول رمضان، وجعلت من رؤية قرية صغيرة نائية رؤية بالنسبة لكل المملكة فإن من الخير اتساع الرقعة حتى تشمل المسلمين جميعاً فيصوموا معاً ويفطروا معاً، وذلك أظهر لوحدة المسلمين، ويكونوا بحق أمة واحدة.

الرؤية والحساب
في إثبات هلال رمضان

لا شك أن الرؤية هي الأساس في إثبات هلال رمضان امتثالاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: « صوموا لرؤيته وأَفْطِروا لرؤيته » وهذه الرؤية إجازة للصوم لا يتم إلا بها.

ومع أن عصر الرسول صلى الله عليه وسلم عرف الحساب وعرف الفلك فإن الشريعة ربطت الصوم بالرؤية لأنها في غير حاجة إلى عناء أو علم في عصر غلبت عليه الأمية وبخاصة بين العرب حتى كان من يحسنون القراءة والكتابة قلة بين « أغلبية » ساحقة، أما من يحسن حساب الأفلاك فَندْرة نادرة.

ولهذا لم يأمر شرع الله إلا بما هو سهل وفي استطاعة المكلَّف أن يقوم به، فما من أحد إلا وهو مستطيع أن يرى، ولا تَشُقُّ عليه الرؤية، أما العلم والحساب في إثبات الأهلة

فما ذلك بيسير إلا على نَدْرة ممن تفرغوا لهذا العلم العظيم.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وعلاماتٍ وبالنجم هم يَهْتدون﴾[1].

وقال عز شأنه: ﴿وهو الذي جعل الشمسَ ضياءً والقمرَ نورًا وقدَّره منازلَ لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصِّل الآيات لقوم يعلمون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿الشمسُ والقمر بحُسْبان﴾[3] أي بحساب.

فالقران الكريم يقرر استخدام الحساب لمعرفة الزمن وقياسه في هذه الآيات وغيرها.

وفي تفسير المنار[4] تحت عنوان «تقدير منازل القمر لحساب الشهور والسنين» قوله في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿والقمر نورًا وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾: التقدير: جَعْلُ الشيء والأشياء على مقادير مخصوصة في الزمان أو المكان أو الذوات أو الصفات،

---

(١) سورة النحل: ١٦.
(٢) سورة يونس: ٥.
(٣) سورة الرحمن: ٥.
(٤) ج ١١ ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

وقدَّر سيره في فلكه في منازل ينزل في كل ليلة في واحدة منها لا يخطئه ولا يتخطاه وهي ثمانية وعشرون منزلاً، معروفة تسميها العرب بأسماء نجومها المحاذية لها. وهذه المنازل هي التي يرى فيها القمر بالأبصار، ويبقى من الشهر ليلة إن كان ٢٩ وليلتان إن كان ٣٠ يحتجب فيهما فلا يرى.

وفي تفسير المنار: ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ أي لأجل أن تعلموا بما ذكر من صفات النيِّرَيْنِ وتقدير المنازل حساب الأوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم الدينية والمالية والمدنية، فلولا هذا النظام المشاهد لتعذر على الأميين من أهل البدو والحضر العلمُ بذلك، لأن حساب السنين والشهور الشمسية فن لا يُعْلَمُ إلا بالدراسة، ولذلك جعل الشرع الإسلامي الصوم وغيره للبدو والحضر بالحساب القمري، وهذا لا يمنع أهل العلم من الانتفاع بالحساب الشمسي(٥).

---

(٥) راجع بحثنا المنشور بمجلة «الفيصل» المعاد نشره في مؤلفنا «حجة النبي صلى الله عليه وسلم» تحت عنوان «التقويم الهجري» الطبعة الأولى والثانية سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) ونشرت الطبعتان على نفقة وزارة الحج والأوقاف السعودية.

فالأمي والجاهل والعالم والكبير والصغير سواء في معرفة الزمن بالقمر، لأنه يولد صغيراً ثم يتدرج في الكبر حتى يبلغ ثم يأخذ في الصغر حتى يختفي ليولد من جديد.

ومن رحمة الله بعبادة جعل القمر نوراً وقدره منازل لنعلم عدد السنين والحساب الذي يعيننا على ضبط أوقات العبادة وكثير من الأحكام وبخاصة دخول رمضان وخروجه ويوم عرفة وأيام التشريق وعيد الفطر وعيد الأضحى.

وإذا دعت الحاجة القصوى في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى رؤية الهلال لإثبات دخول رمضان لفشُوِّ الأمية وخلو المجتمع العربي الإسلامي من علماء في الفلك، لأن الله لا يكلف عباده ما ليس في وسعهم. وإنما كلفهم بالصوم ويسَّر عليهم معرفة أول الشهر حتى يبدأوا به أداء هذه الفريضة.

وفي دولة كالولايات المتحدة التي تقدمت كل دول العالم في مختلف العلوم حتى عربدت بين خدور النجوم، وأقامت علمها على سطح القمر، وأنزلت عليه غير مرة أفراداً من البشر لم تعد في غنى لإثبات هلال رمضان عن الرؤية إذا فرضنا أنها دولة مسلمة. لأن من الجائز أن أفراداً يعيشون بعيدين عن الأماكن التي تصل إليها الأنباء في سرعة البرق. فهم مضطرون إلى الرؤية لكي يصوموا.

ولهذا كانت الرؤية هي الأداة الأولى لإثبات دخول رمضان. ويتفق فيها عالم الفلك والعامي الأمي.

وتلك مزية الشريعة السمحة التي يقترن ما تفرضه بيسر وسيلة الأداء حتى يُطيقه العالمُ والجاهلُ ومن يتفاوتون في درجات القدرة.

ومع هذا لم يحجر الإسلام الذي فرض الصوم وأمر باتخاذ الرؤية في إثبات دخول شهره المبارك أن يستعين المسلمون بالحساب وكل ما يعين على الاهتداء إلى العلم بأول رمضان.

وسواء أكان الصوم بالرؤية أم بالحساب فإن ذلك مرتبط بالقمر، وأي سبيل يفضي إلى التحقق من مولده يجوز سلوكه.

المطلوب شهوده، ألم يقل الله الذي فرض علينا الصوم: ﴿فمنْ شهد منكم الشهرَ فليصُمْه﴾ وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيِّن لنا وسيلة الشهود السهلة، فأمرنا أن نتخذها فقال: «صوموا لرؤيته» وأداة الرؤية العين التي هي جزء من خَلْق الإنسان. ولكل منا هذه الأداة، فهو قادر على أن يشهد ميلاد الشهر.

وطبيعي أن هذا الشهود لا يكلف جهداً، ولا يرهقنا من الأمر عسراً.

وذلك من سماحة الإسلام الذي لم يكلف الناس إلا بما هو سهل جِدٌّ سهلٍ فأمر به، لأن المجتمع المكلَّف بالصوم مهما انتشر فيه العلم فإنه لا يخلو من احتياج أفراد فيه إلى الوسيلة الطبيعية يُهْتَدَى بها إلى إثبات دخول شهر الصوم فقرر الرؤية التي لا غنى عنها مع التقدم في الحساب ووجود آلات الرصد المتطورة.

وخلاصة القول من بحث إثبات هلال رمضان أن الإسلام الذي فرض الصوم لم يمنع الحساب واتخاذ آلات الرصد، وإنما قرر لنا في كتابه العزيز أنه جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً، وقدر القمر منازل ليكون ذلك أداة معرفة الزمن والحساب.

إذن، هناك حث على المعرفة والحساب، وإنهما لينتهيان بنا إلى ما تنتهي إليه الرؤية، بل هما أدق منها وأكثر هدى.

وما دامت النتيجة أن نهتديَ إلى ميلاد هلال رمضان بالعين المبصرة فإنها هي التي تستخدم آلات الرصد التي ترينا إياه فيكون صيامنا بهذه الرؤية الصحيحة الثابتة.

شهر القرآن أفضل الشهور

. إن الله سبحانه وتعالى فضَّل بعض الأزمنة والأمكنة على بعض، ففضَّل أربعة الأشهر الحرم على غيرهن من الشهور إلا شهر رمضان وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وفضل شهر رمضان على غيره، لأن الله سبحانه وتعالى أنزل في ليلة مباركة من لياليه القرآن الكريم خير ما أنزل على رسله من كتبه التي أنزلت في هذا الشهر المبارك الكريم أيضاً.

ولما كانت كتب الله جل جلاله قد أنزلت في شهر رمضان فقد فَضُلَ على كل الشهور لمزايا تفرَّدَ بها، وبذلك كله صار سيد الشهور، وأعظم فضل له نزول كتب الله فيه، ففي الحديث الشريف: نزلت صحف إبراهيم لثلاث مضين من شهر رمضان، وتوراة موسى لست مضين منه، وزبور داود لثمان عشرة مضت منه، وإنجيل عيسى لثلاث عشرة مضت منه، والقرآن لأربع عشرة منه.

وزاد فضل شهر رمضان وتأكدت بركاته وتجلت أنواره بأن أنزل وحيه بكتابه المبين على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم فيه.

ولما كان نزول القرآن من قبل الله جل جلاله على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم في هذا الشهر الكريم، وأنزله في ليلة مباركة من ليالي العشر الأواخر التي جعلها بفضله وكرمه خيراً من عمر الإنسان كله إذا طال، جعله خيراً من ألف شهر.

وألف شهر تزيد على ثلاث وثمانين سنة ببضعة شهور، ومتوسط عمر الإنسان في هذا العصر المتقدم لا يصل إلى الستين بالنسبة لسكان الأرض.

وهذه الليلة الكريمة العظيمة ليلة القدر، ليلة الشرف التي وصفها الله بأنها الليلة المباركة إذ قال تعالى: ﴿حَمَ● والكتابِ المبينِ● إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا مُنذِرين﴾ الدخان: ١ - ٣.

وهي خير ليلة على الإطلاق ودون استثناء. وإن شرفها لكثيرٌ وعظيم، يكفي أن يخلدها الله جل جلاله بالذكر الدائم الحميد في الذكر الحكيم، ويزداد تأكيد هذا الشرف بأن يقترن النزول بنبوة خير خلق الله محمد عبدِ الله ورسوله.

وَيَعْظُمَ هذا الشرف حتى ليعمَّ الإنسانية كلها ويخلد حتى تطلع الشمس من مغربها فيرث الله الأرض ومن عليها وما عليها.

حقاً إن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم مبعوثُ رحمة وهدى، ومن آيات هذه الترجمة الدائمة المتجددة من تلقاء نفسها ألا يقتصر شرف ليلة القدر على الرسول الكريم وحده وعلى وقت تنتهي فيه بانتهاء نزول آخر آيات الكتاب المبين، بل أنعم الله على أمة محمد وأكرمها بأن جعل شرف ليلة القدر وبركتها دائمين متجددين، ويكونان من نصيب كل مؤمن يدعو ربه بقلب سليم.

ولقد ارتفعت الأرض إلى السماء عندما أنزل الله قرآنه كما ارتفع الإنسان الأول إلى أعلى الذرى وهو المخلوق من طين. ثم تبعه في الارتفاع ولده الذي أنشأه الله من ماء مهين.

ولما كرَّمَ الله آدم وأسجد له ملائكته حتى يعرفوا قدره الذي رفعه بأن علمه ما لم يعلموا ففضُلَ الطينُ على النور والنار.

وإذا كان تبارك وتعالى قد جعل سبب كرامة آدم المجبول من الطين العلم الذي علَّمه فإنه قد أمر نبيه المصطفى في أول عهده بالنبوة أن يقرأ باسمه الذي خلق

الإنسان من علق، ومنَّ عليه بالعلم وأسبابه، وبذلك التقى العلم الأول في بدء الخليقة بالعلم المتوارث من قبل ولد آدم وبالاستعداد الدائم المفطور عليه لأن يتعلم دون توقف.

وعندما أراد الله أن يبعث رسولاً جديداً بدين جديد وجعلها آخر رسول وآخر دين كان سبحانه وتعالى قد جعل العقل الإنساني مهيئاً لأن يفهم الأسباب والمسبَّبات، وجعله قادراً على أن يدرك ما دقَّ وخفِيَ فذكَّر الإنسان بأنه مخلوق من علق، لأنه أخذ يفهم هذه الأسرار الخفية.

ومعجزة الإسلام الكبرى مرتبطة بالعقل والرشد فجعلها القرآن الكريم، ولم يقم الإسلام على معجزات كمعجزات الرسل السابقين تقوم على الخوارق والتنبؤات، لأن عهد هذا الدين الجديد غير ما سبق من العهود، إنه عهد تفتح العقل واستعداده للهداية والرشد.

ولقد جاء العصر الحديث مُصَدِّقاً لواقع الإسلام الذي أبى رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم أن يؤيد رسالة الله بالخوارق، مستغنياً عنها برشد العقل وهداية الضمير.

وأبى رسول الإسلام محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه أن يتخذ الخوارق لتأييد ما جاء به عن ربه من الدين الجديد.

لأسباب منها: أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان بعثه ودينه وكتاب الله الذي أنزل عليه رحمة وهدى للعالمين. وكل هؤلاء ختام لا يعقبه رسول ودين وكتاب. ولهذا تقتضي الرحمة أن يأبى المعجزات القائمة على الخوارق.

والذين طلبوا منه المعجزة نَدْرَةٌ نادرة من البشرية التي بُعِثَ إليها، وفي زمن معلوم محدود، ويجب أن يكون الطلب من كل من بُعِثَ إليهم منذ يوم الدعوة الأول إلى آخر يوم في عهد الإنسانية.

وما دام ذلك مستحيلاً فإن إباء الرسولِ الاستجابة للطالبين المتَحَدِّين يتبع تلك الاستحالة.

ولو أُجْرِيَتْ خارقة من الخوارق لما رضي بها إنسان العصر الحديث الذي رأى من الخوارق التي صنعها العقل ما لا يحصره إحصاء.

إنه أجرى معجزات آية في العِظَم، واستعملناها واستمتعنا بها، وأخذنا نضيف كل يوم معجزاتٍ جديدة تضاف إلى ما سبق إجراؤه.

لهذا أبى رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم أن

يأتيهم بخوارق، مكتفياً بالمعجزة الكبرى: القرآن الكريم، وإن فيه الغناءَ كُلَّ الغناء.

أَمَا وأن الله أكرم البشرية كلها بكتابه العزيز الذي أنزله في هذا الشهر المبارك الكريم فسنكون مع من يسمعون هذا الحديث ضيوفاً على مائدة القرآن وشهر رمضان وعلى مائدة العقل والرشد والقلم.

لماذا فَضُل شهرُ رمضان

يكفي لبيان فضل شهر رمضان المبارك أن الله سبحانه وتعالى خالق الزمان والمكان والكون كله قد اختار هذا الشهر لأعظم الأحداث في هذا الوجود.

ومن المقطوع به أن أعظم ما حدث في الوجود اختيار الله عز وجل عبده محمداً صلى الله عليه وسلم للرسالة العظمى الخالدة فبعثه رسولاً للناس كافة منذ يوم بعثه إلى أن تنتهي الدنيا والحياة، وجعله هدى ورحمة للعالمين، ولم يكتف الله عز وجل بأن جعله نبياً ورسولاً، بل قرن النبوة والرسالة بأن أنزل عليه خير كتبه، بل عَظُم خير الله وكثر على الإنسانية كلها أن جعل كل ما ينطق وحياً، وقال عز شأنه في حق نبيه: ﴿وما ينطق عن الهوى ● إن هو إلا وحي يوحى﴾.

وليس في الشهور غير شهر رمضان الذي خصه بأن جعل

إحدى لياليه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، تتنزل فيها الملائكة وجبريل.

ولم يكرم الله شهراً مثل رمضان حيث يلقى رسول الله كل ليلة جبريلَ فيعرض عليه القرآن. وكل هذا شرف للإنسانية عظيم. إذ يلتقي رسولها الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم والروح الأمين جبريل عليه السلام يتذاكران كتاب الله ذخْرَ الإنسانية.

ومن عِظَم شهر رمضان أن تفيض راحتا رسول الله بالخير والإحسان فيضاً لا يرى مثله في غيره، فكما وصفه ابن عباس رضي الله عنهما بأنه عليه الصلاة والسلام أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان لكثرة ما جعل الله فيه من الخيرات والبركات.

وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضوان الله عليهم كانوا يتأسَّوْن به، وتفيض أفئدتهم بشعور الخير كما تفيض أكفهم بمزيد من العطاء فتزداد بين المسلمين روابط أخوة الإسلام رسوخاً وتوثيقاً.

وكذلك يصنع من أمة محمد من وفقهم الله لأن يجعلوا من رسولهم الكريم أسوة حسنة فتهطل أياديهم بالخير الجزيل.

وأي نعمة أعظم من أن تُفَتَّحَ أبوابُ الجنة في شهر رمضان وتُغْلَقَ أبواب النار وتُصفَّد الشياطين، وهذه نعمة خص الله بها هذا الشهر العظيم الذي رجح ثقله في ميزان المكارم والمزايا.

وإذا كان كرم الله قد وصل إلى الحد الذي لا يتصوره خيال بشر، ولا تدركه الأرقام الفلكية التي تتجاوز ديشليونات الديشليونات فإن كرمه ازداد فيضاً في هذا الشهر الكريم، فالحسنة كما جاء في الوحي كتاباً وسنة بعشر أمثالها ويضاعف لمن يشاء حتى ليكون سبعمئة ضعف، ويجب أن نفرق بين المثل والضعف، فمثل الواحد خمس مرات هو خمس، أما مضاعفة الواحد خمس مرات فأربع وعشرون. ولهذا لا يمكن أن يُكْتَبَ أو يُقْرَأَ الرقم إذا ضوعف سبعمئة ضعف، فإذا أنعم الله على أحد بمضاعفة حسنة من حسناته سبعمئة ضعف لا يمكن لبشر أن يتصور عظم هذا الثواب من الله. فمضاعفة حبة رمل واحدة سبعمئة ضعف لا تسعها أرضنا.

وثواب الصوم الفرض أعظم من الحسنة المضاعفة سبعمئة ضعف، لأن الله سبحانه وتعالى كما جاء في الحديث الشريف قال: «الصوم لي وأنا أجزي به» فهذا الجزاء أعظم من الحسنة المضاعفة سبعمئة ضعف.

وقيام رمضان أفضل من قيام غيره من الشهور لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه ».

وما أكثر النعم التي خص بها الله أمة نبيه عليه الصلاة والسلام وبخاصة في هذا الشهر المبارك الذي تشير تَفَتُّح أبواب السماوات فيه إلى كثرة تلك النعم التي لا يحصيها كل ما خلق الله، ولو كان لكل ذرة منه ألف ألف لسان.

وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرح بمقدم شهر وينتظره بفرح كثير غير شهر الصوم، يستقبله سعيداً، ويصومه طائعاً، وتتضاعف فيه أعمال بره وخيره وحسناته.

فإذا أراد أن يستقبل الأواخر من لياليه استعد استعداداً عظيماً خاصاً لا يستعده في غير رمضان.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، وفي العشر الأواخر منه ما لا يجتهد في غيره » رواه مسلم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجدَّ وشد المئزر » متفق عليه.

وهذا اهتمام من الرسول صلى الله عليه وسلم لم يؤثر عنه في غير العشر الأواخر من ليالي شهر رمضان، كما لم يؤثر عنه في غيره الاجتهاد الذي أشارت إليه أم المؤمنين الصديقة عائشة رضي الله عنها.

ومن أعظم نعم الله أن جعل العمرة في شهر رمضان تعدل حجة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال: «عمرة في رمضان تعدل حجة معي».

ويدل هذا الحديث الشريف الذي روي عن غير واحد من الصحابة أن ثواب العمرة في رمضان تعدل ثواب حجة فريضة الإسلام التي كانت حجة وداعه صلى الله عليه وسلم، وسيان في عمرة رمضان أن تكون فريضة أو نافلة، فالمثوبة تعدل ثواب حجة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعتمر قط في شهر رمضان وإنما كانت كل عُمَره - وهي أربع - في غير رمضان، كانت عُمَرُه في شهر ذي القعدة إلا التي كانت مقرونة بحجةِ وداعه كانت في شهر ذي الحجة فإن العمرة في رمضان أفضل، لأنها تعدل حجة معه صلى الله عليه وسلم. وتلك مكرمة يتفرَّد بها شهر رمضان دون سائر الشهور.

وما أكثر النعم والخيرات والبركات التي أودعها الله في

شهر رمضان، وجعل ختامها زكاة الفطر يُعْطَاها الفقراء مشاركة لهم من الأغنياء حتى تعمهم الفرحة والبهجة والسرور والسعادة التي تتجلى في ختامه الفرحة الكبرى بعيد الفطر السعيد إعلاناً للحمد والشكر والثناء على الله جل جلاله الذي وفق أمة الإسلام للصيام والقيام. وابتهاجاً بهذا التوفيق العزيز.

اِقرأْ باسم ربك

سمة الإنسانية المتقدمة ومدنيتها وحضارتها تتجلى في القراءة والكتابة اللتين هما مفتاح التقدم الإنساني ومعراج حضارة الإنسان، فهما أداة التدوين الذي يصدر عن تفتح العقل وتقدم الفكر.

وبراعة استهلال دين الإسلام الذي ارتضاه الله عز وجل لكل عباده من بني الإنس والجن أن أول كلمة نزلت من السماء والأرض إيذاناً بنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين كانت ﴿اقرأ﴾ أمراً من الله أن يقرأ ويفتح أول قراءة له باسم الله الأعز الأكرم.

﴿اِقرأْ باسم ربك الذي خلق● خلق الإنسان من علق● اقرأ وربك الأكرم● الذي علَّم بالقلم● علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

فمفتاح الإسلام كله أو بدايته الأولى أمر الله بالقراءة

التي هي مفتاح أبواب العلم، والقلم أداة التدوين والتثبيت، لأن الذاكرة تختزن ما تقرأ، وقد تنسى إذا كثر المخزون من القراءة في الذاكرة، فلكيلا تنسى أو يضيع من المحفوظ شيء كان التدوين حتى لا يضيع شيء، وحتى يبقى النص سليماً من الحذف والتحريف والضياع.

ويعلم الله جل جلاله أن عبده الذي اصطفاه دون الخلق بالرسالة العظمى الخالدة التي ختم بها كل رسالاته السابقة أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فكيف يصدر إليه أن يأتي بشيء هو فاقده؟ كيف يطلب إليه أن يقرأ وهو الذي لم يقرأ قط لأنه لا يعرف القراءة؟

إن أمر الله بالقراءة لا يقتضي أن يقرأ ما هو مكتوب، بل يمكن أن يكون قراءة ما سيُلْقَى إليه من القول ويتلقنه ممن يقرئه فيعيد ما يسمع كما سمع، ولهذا عندما هبط عليه الملك بأمر السماء: ﴿اقرأ﴾ فأجابه: «ما أنا بقارىء» ظن أن الذي جاء بالأمر أو أصدره إليه لا يعلم أنه أمي لا يعرف القراءة، فيخبره بحقيقة أمره.

ويرى الإمام محمد عبده أن الأمر في قوله تعالى ﴿اِقرأ باسم ربك﴾ هذا أمر تكويني يقول للشيء: كن، فيكون، وليس أمراً تكليفياً مثل: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة،

وعليه يكون المعنى كن الآن قارئاً، إن لم تكن كذلك من قبل، فإن الرب الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يجعلك قارئاً من غير أن تتعلم القراءة[1].

ولعل ما رأيناه أقرب من تأويل الإمام الشيخ محمد عبده، فقد كان جبريل ينزل بالقرآن على محمد عليه الصلاة والسلام فيقرؤه عليه فيعيه ويحفظه.

ففي بضع الآيات الكريمات اللاتي كنَّ باكورة ما نزل من القرآن الكريم على سيدنا سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام: القراءة والقلم والعلم، وهذه هي الحضارة الإنسانية في مستواها الأرفع إذا كانت في دين الإسلام الذي يحرس القلم فلا يكتب غير ما هو صالح، واللسان فلا ينطق إلا بما هو حق، والصحيفة فلا يكتب فيها إلا ما هو خير، والعلم فلا يكون إلا فيما هو نافع.

وعندما خلق الله آدم جعل بداية الحياة أن علَّمه العلم الذي خصه به دون الملائكة ففَضُل بذلك عليهم، فأمرهم بالسجود له فسجدوا إلا إبليس أبى فكان من الكافرين.

---

(١) رواية الشيخ محمد جواد مغنية في تفسيره المسمى «التفسير الكاشف» تفسير سورة العلق.

ولم يكن علم سيدنا آدم عليه السلام علماً ينفذ إلى البواطن والأسرار، لأن ذلك يكون سابقاً لأوانه. ويكلف أولاده فوق طاقتهم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

أما في أيام بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فقد وصل العقل الإنساني مرتبة عالية في فهم كثير من خواص الطبيعة وأسرار ما خلق، لأن آلاف السنين التي مرت به أكسبته تجارب لا تحصى، وزودته بعلم غزير حتى تَفَتَّحَ العقل وصار يدرك الخفايا والأسرار، ولهذا بدأت نبوة نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام بسر عظيم من أسرار خَلْق الإنسان فأنزل الله على نبيه أول ما أنزل ﴿اِقرأ باسم ربك الذي خلق● خلق الإنسان من علق﴾.

وعند نزول هذه الآيات كان في الأرض أناس يفهمون معنى ﴿خلق الإنسان من علق﴾ وكلما تقدم العلم وتطور العقل تكشف له أسرار خلق الإنسان ما يزيده إيماناً بوجود الخالق وقدرته.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد منَّ على الإنسان بالعقل وأعده بما ركَّب فيه من غرائز وأعضاء ومواهب وملكات لأن يفهم ويدرك الخفايا والأسرار، وزوده بالذاكرة، ووهب له قدرات تصل إلى حد الإعجاز،وألهمه أن يهتدي

إلى اللغة، وزوده بأعضاء النطق. وهداه إلى القلم واستعماله، فصار يقرأ و يكتب ويزداد علماً وفهماً فإن الله قد مَنَّ عليه أعظم من ذلك كله وأكثر إذ جعله مدركاً وحدانية الله وحقه على عباده أن يعبدوه لا يشركون به شيئاً، وجعل أول أمر من السماء إلى الأرض، من الخالق للخلق أن يقرأ باسم ربه الذي خلق.

فالإيمان الحق بوجود الله ووحدانيته وبقدرته سبحانه وتعالى على الخلق ابتداء ومن العدم هو ذخر الإنسان وعلمه وزاده الأبدي.

فالإسلام دين الإيمان والتوحيد والعلم والأخلاق والهدى والرشاد، ولهذا ختم الله به كل ما أنزل من دين، إذ جمع في الإسلام خير ما تفرق في كل الأديان التي سبقت، كما ختم برسول الإسلام رسله الكرام، وأقامه منذ أن أرسله إلى أن تنتهي الحياة والدنيا رسولاً للناس كافة.

والإسلام هو الدين الوحيد الذي كان أول شعاع انبثق من نوره كلمة الدين والعلم والأخلاق والإيمان والعقل والحضارة مطوية في ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ ولم يسبق مثله فيما سبقه من الأديان وكتب الله المنزلة قبل القرآن.

فما بين أيدينا مما يعرف بالتوراة والإنجيل وفي أسفار

العهـد القديم صحف داود التي هي الزبور وكل أسفار العهد القديم والجديد لم تكن مفتتحة بمثل افتتاح الإسلام سواء أكان بكلمة واحدة ﴿اقرأ﴾ أو بسم الله الرحمن الرحيم.

وهذا هو الفارق بين كل ما سبق من ديانات التوحيد ومن الكتب المنزلة على الرسل الكرام وبين دين الإسلام والقرآن ومحمد عليه الصلاة والسلام في صحة العقيدة وسمو الإيمان وكل مكارم الأخلاق.

الصيام نقلة إنسانية وحضارية

الصوم: الإمساك عن فعل أو الامتناع عن الإتيان ببعض ما هو مباح، والامتناع عن الطعام يكون بسبب مرض أو حمية أو عجز أو عبادة، ونرى في بيئة الحيوان صوماً بسبب مرض يمنعه عن الطعام، وقد يحمي الحيوان نفسه عن الطعام كله أو عن بعض صنوفه بالغريزة رغبة في الشفاء من مرض أَلَمَّ به أو داء.

والإنسان البدائي عرف الإمساك عن الطعام والشراب بغريزته بسبب مرض أو فقد شهية حتى إذا تقدم في سلم الحضارة عرف الصوم عبادة وتقرباً إلى الأرباب التي عبدت من دون الله.

ولا شك أن اهتداء الإنسان إلى الصوم نقلة حضارية عظيمة، لأن مجرد الإدراك من قبله أن في الصوم إرضاء لمن يعبد إنما هو فهم للمعاني غير المادية، فالأوثان - وإن كانت مادية - غير معبودة من قبل عُبَّادها لأنها مادية، بل

لما تتبطن من معان وغيبيات.

ويصوم البدائي دفعاً لشر واجتلاباً لخير، وربطُه بين الأسباب والمُسَبَّبات «عملية» ذهنية تدل على تقدم وتطور، لأن الإنسان البدائي استطاع أن يربط بين الواقع المشهود والغيب المجهول الذي لا يعرف كنهه، وإن لم يفته تصوُّره.

وبدء الصوم عند الإنسان البدائي كان من عُسْرِ الحصول على قُوته فكان أحياناً لا يجده فيبحث عنه وينتظره، وكأَنَّ فترة البحث عن الطعام أشبه بالصوم الذي يضطر إليه بسبب فقدان ما يأكل.

وقد يكون الطعام ميسوراً لديه، وكثيراً بين يديه، ولكن المرض أو الحزن يصرفه عنه زمناً قد يطول ويقصر.

ونحن في أيامنا قد نحزن لمصاب في عزيز فيشغلنا الحزن عن الطعام ويصرفنا عنه ساعات، وقد يستبد الحزن بأحدنا فلا يأكل يوماً أو أكثر.

فلا غرابة إذا كان الإنسان القديم يطوي الأوقات جوعاً لأنه لا يجد ما يَطْعَمُه، ولكن هذا ليس صوماً إلا على شيء من التجوز، لأنه ممنوع عن الطعام على غير إرادته، ولكنه على كل حال أمسك عن الأكل لسبب من الأسباب.

ولما تطور الإنسان وعرف العقيدة الدينية عرف الصوم وإن لم يكن مفروضاً عليه من قِبَلِ من يعبد، بل كان زهاد وملحدون لا يؤمنون بدين كأتباع الديانة البوذية والجينية، وهما ديانتان ملحدتان لا تعترفان بالله، وأتباعهما يصومون أياماً طويلة.

وبلغ الأمر ببوذا أنه صام أياماً طويلة، وبقي سنوات نذر فيها ألا يطعم حتى جف جلده ولم يعد يتحرك إلى حد أن الطيور كانت تقع عليه تظنه عوداً، وكانت الوحوش تمشي بجانبه لا تحس به كما لا يحس بها.

وأتباع الجينية عزفوا عن الحياة وحرَّموا على أنفسهم اللحم وكل صنوف اللذة والمتعة، وكانوا لا يضيقون بالجوع مهما اشتد عليهم، فكانوا لا يأكلون ولا يشربون أياماً بل أسابيع حتى أن من عقيدتهم التي يخلصون لها حتى يومنا هذا الانتحار جوعاً، إذ يصوم عن الطعام والشراب أياماً وأسابيع قد تبلغ الشهر أو الشهرين وهو مضرب عن الأكل والشرب حتى تنطفىء حياته في هدوء.

والزهاد في كل الديانات الصحيحة والوثنية يصومون زهداً وعزوفاً عن الملذات، ومنهم من يصومون رجاء صفاء النفس إرضاءً لمن يعبدون.

وطبيعي أن تتعدد صنوف الصوم، فمنها: الصوم الذي تفرضه الحمية، ويتقبله راضياً طمعاً في الشفاء حتى يصح.

ومنهم العشاق يصومون من الحزن على فراق من يحبون، ويشغلهم العشق المبرح عن الطعام والشراب.

ومنهم من يصوم تزكية للنفس بتعذيبها بحرمانها من الطعام والشراب، ويعدون ذلك تكفيراً عن الذنوب.

ومنهم من يجبر على الصوم كالأسرى يحرمونهم من الطعام انتقاماً منهم وتشفياً .أو كالسجناء يمسكون عنهم الطعام بعض الوقت ثم يسمحون لهم بشيء منه في بعض الأوقات تأديباً لهم.

وفي عصور الحضارة رأينا من الحسان من يصمن طلباً للرشاقة، ولم يكن الرجال بنجوة عنهن فصاموا من أجل الرشاقة، ومن الجنسين - وبخاصة النساء - من احتملوا العذاب مع الصيام كي يظفروا بالوسامة والجمال.

وصام كثير من الناس طلباً للشفاء من بعض الأدواء أو طلباً لمزيد من الصحة، وهذا صيام فرضه الطب.

وعجيب من هذا الإنسان الجهول مع تبحره في العلم والمعرفة يفرض عليه الطب الحمية والصيام فيؤدي فريضة

الطب راضياً ولا يفطر وعين الطب بعيدة عنه لا تراه، لأنه يقيم من نفسه على نفسه رقيباً. أما الصوم المفروض عليه من رب العباد لصلاح أمره ديناً ودنيا فهو لا يحتمله، ويعصي أمر خالقه، ولا يقبل حمية الله ويقع في حماه ولا يبالي، مع أن عين الله لا تغفل ولا تغيب عنه أنى كان من ساعات الظلمة أو النور.

وبعض الناس يضيق بصوم العبادة ولا يضيق بصوم الطب ويتحمل منه العسر والمشقة مع أن الصوم الديني يشمل فوائد صوم الطب ويتجاوزها ليشمل منافع الطاعة والرضا بما فرض الله.

هذه ضروب من الصيام عند بنى الإنسان، وشيء منه نجده عند الحيوان، إذ يصوم من تلقاء نفسه بوحي من غريزته يَطُبُّ بالصوم نفسه استدواء واستشفاء.

صوم الأمم السابقة

عندما فرض الله سبحانه وتعالى الصيام على المسلمين إذ قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ أخبر أن الصيام كان مفروضاً على الأمم السابقة.

وفريضة الصوم التي كانت على من كانوا قبل أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تدخل في أولئك السابقين الأمم الوثنية التي كانت تعبد الأصنام والأوثان التي سموها آلهة وأرباباً من دون الله. وإنما كان الصيام مفروضاً على أمم التوحيد مثل قوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى.

وليس صيام من سبقوا مثل صيام المسلمين وإن كان الجميع يشتركون في هذه العبادة العظيمة، وهذا يدل على أن دين الله واحد وإن تعددت الرسل والرسالات.

نعم، الدين واحد في أصوله ومقاصده، وقد ذكر الله

ذلك في كتابه العزيز فقال: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ دين آدم ونوح وكل الرسل سواء كانوا أولى عزم أم كانوا غيرهم هو الإسلام، دين آدم الإسلام، ودين نوح الإسلام، ودين كل الرسل والأنبياء الإسلام.

ولكن لم يُسَمَّ أيٌّ دين الإسلامَ غيرَ دين محمد عليه الصلاة والسلام فهو وحده الذي سُمِّيَ الإسلامَ وعُرِفَ به، فهو دين الإنسانية الخالد.

ولأن دين محمد خاتم الأديان فقد جمع الله فيه خير ما كانِ فيما سبقه من الأديان وأطلق عليه الإسلام كما سمى الله من تَدَيَّنوا به المسلمين إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتُوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾[1].

فكما أن الله سبحانه وتعالى جعل الإسلام خاتم الأديان وخير دين وجعل رسول الإسلام خير الرسل وخاتمهم فقد جمع

---

(١) سورة الحج: ٧٨.

في الصوم الإسلامي كل ما تفرق من الحكم والمزايا في صيام كل دين، ورفع الله من شأن الصوم في الإسلام ومن شأن الصائم فيه إلى مرتبة لم يرقَ قط إليها صوم وصيام وصائمون.

وعندما يجوع الإنسان وتتغير رائحة فمه إلى البخر يتحول في فم الصائم رائحة ذكية محبوبة ﴿لَخُلُوفُ فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك﴾ كما قال رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم.

ومعروف أن الله يجزي كل خير من يعمله، ولكنه خص الصائم بالمثوبة تكريماً له وإعظاماً منه سبحانه وتعالى للصوم الإسلامي أنه هو نفسه يجزي به لأنه له وحده إذ رُوِيَ في حديث شريف أنه قال جل جلاله: «الصوم لي وأنا أجزي به».

وفي صحيح البخاري رحمه الله[٢]: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصيام جُنَّةٌ، فلا يَرْفُثْ ولا يَجْهَلْ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم (مرتين) والذي نفسي بيده لَخُلُوفُ فم الصائم أطيب

---

(٢) صحيح الإمام البخاري ٣: ٢٤ - ٢٥ الطبعة الأميرية سنة ١٣١٤ هـ.

عند الله من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي، وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها ».

وكل هذا من كرامة الصائم على ربه الذي كَثُر خيره عليه حتى أنه ليدخل الجنة من باب خاص من أبوابها، لا يدخل منه غير الصائمين يقال له: الريان، لأنه قبيل دخوله الجنة يكون ريان تلقاء عطشه عند صيامه.

وهذه مكرمة حباها الله لعبده الصائم المكرَّم من قبل الله ومن قبل رسوله الذي قال[٣]: « إن في الجنة باباً يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغْلِقَ فلم يدخل منه أحد ».

والصيام في كل ديانات التوحيد: إمساك النفس قبل كل شيء عن كل ما حرم الله مما لا يليق بالمؤمن، وليس ما حرم الله من الكبائر وحسبُ، بل هناك من المحرمات ما لا يأخذ باله منه، مثل نهر المسكين، وكسر قلب اليتيم، والازورار عن الضعيف، وقبض اليد عن الإنفاق مع قدرتها عليه.

(٣) هذا الحديث عن سيدنا سهل رضي الله عنه، صحيح البخاري ٣ : ٢٥ الطبعة الأميرية.

وفي الإسلام مثل ما في غيره من ديانات التوحيد التي سبقته، ومن آداب الصوم في الإسلام: ضبط النفس عن كل ما هو مَشِينٌ ومَعِيب، ولا تكفي فيه الفضائل السلبية القائمة على ما نهى الله عنه، بل يجب أن تجتمع فضائل السلب كالمنهيات وفضائل الإيجاب كالأوامر وكل ما صلح من الأعمال وكل ضروب المعروف.

وعدم نَهْرك اليتيمَ فضيلة سلبية تثاب عليها، ولكن إحسانك إليه بكلمة طيبة مقرونة بهدية من مال أو كساء فضيلة إيجابية يجزيك الله عنها خيراً، والحسنة بعشر أمثالها، ويضاعف الله لمن يشاء.

وليس بين أيدينا وصف صيام من سبقوا وأسلوبه وزمنه، وكل ما ورد في الحديث الشريف- على قدر علمي- وصف صيام داود عليه السلام فقد ذكر الإمام البخاري في صحيحه[٤] أن عبد الله بن عمرو قال: أُخْبِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أقول: والله، إني لأصومنَّ النهارَ وأقومنَّ الليلَ ما عشتُ، فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي، قال: «فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأَفْطِرْ، وقم ونم، وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها،

(٤) الطبعة الأميرية ٣ : ٤٠ .

وذلك مثل صيام الدهر » قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: « فصم يوماً وأفطر يومين » قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: « فصم يوماً وافطر يوماً فذلك صيام داود عليه السلام وهو أفضل الصيام » فقلت إني أطيق أفضل من ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا أفضل من ذلك ».

وليس في هذا الحديث الشريف غير خبر صيام داود عليه السلام، ولا يعرف أسلوب صيامه و« كيفيته » وإن كان يُفْهَمُ منه أنه كان يصوم عن الطعام والشراب والمرأة كما يصوم المسلم.

صوم أمم ديانات التوحيد

ذكرنا في الحديث السابق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكر فيه صيام داود عليه السلام الذي يعد صيام الدهر، وهو صيام يوم وإفطار يوم، ولكن الحديث الشريف لم يصف لنا صوم داود، وكل ما نعلمه أنه كان يصوم كما سبق لغيره من الأنبياء والرسل الصوم، وإن كان المفهوم أنه يشبه صيامنا.

وجاء في حديث لرسول الله أن موسى صام يوم عاشوراء. وها هو ذا نص الحديث كما في صحيح البخاري[١]: «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: «ما هذا»؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نَجَّى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: «فأنا أحق بموسى منكم» فصامه وأمر بصيامه».

وفي البخاري[١] أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت:

(١) الجزء الثالث، صفحة ٤٤ طبعة بولاق الاميرية.

«كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء فمن شاء صامه، ومن شاء تركه».

فصيام موسى حق، ولكننا لا نعلم هيئته ووصفه، كما لا نعلم صيام الجاهلية وإن لم يكن أهلها من أمم التوحيد حينئذ، كما أننا لا نعرف أسلوب صوم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل فرض صيام رمضان.

وأما صوم قوم نوح وغيرهم من أقوام الرسل الآخرين فغير معروف أسلوبه، وكل ما نعرفه من القرآن الكريم أن الصوم كان مفروضاً على الأمم السابقة دون أن يذكر القرآن ولا الحديث «كيفية» صيام من سبقوا.

وإذا كنا نجهل أسلوب الصوم لديهم فإن الشيء المعلوم هو أنهم كانوا يصومون، لأن الصيام في ديانات التوحيد من أركانها.

والقرآن الكريم قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ وبديهي أن القرآن لا يريد غير الموحدين، لأنهم هم الذين يفرض الله عليهم أن يصوموا، وغير الموحدين من الوثنيين لا يفرض الله عليهم

الصيام، وإنما يفرضه على المؤمنين، لأن أي عبادة من صوم أو صلاة غير مقبولة من صاحبها ما لم يكن مؤمناً حقاً.

ولما كانت ديانات التوحيد كلها مبنية على أصول واحدة فإن الصوم والصلاة كانا من أركانها، فها نحن أولاء نجد في الديانات السماوية المحرفة كالموسوية (اليهودية فيما بعد) والعيسوية (النصرانية فيما بعد) صوماً وصلاة، كما أن أركان الإيمان في كل الديانات واحدة، ثم حُرِّفت بعد موت الرسل والمؤمنين بهم، وانقلبت ديانات التوحيد وثنية، وبذلك تحوَّل خط سير العبادات ومناهجها فانسلخت من الحق إلى الباطل، ومن التوحيد إلى الشرك والوثنية.

فالحج الذي فرضه الله على إبراهيم وأمره سبحانه بأن يؤذن به في الناس انقلبت هذه العبادة إلى شرك ووثنية، ودخل في الحج من المنكر والبدع ما أدركه الرسول صلى الله عليه وسلم في الجاهلية وفي الإسلام أيضاً، فقد دخل الشرك في التلبية بعد أن كانت توحيداً خالصاً، كما دخل فيه من المنكر ما تأباه مكارم الأخلاق والآداب الفاضلة مثل كشف العورات في أقدس مكان بين يدي الكعبة المشرفة.

فقد ذكر تاريخ العرب أن الحجاج كانوا نساء ورجالاً يطوفون ببيت الله عراة، وبقي بعد البعثة النبوية

الشريفة مدة ثلاث عشرة سنة هي فترة الدعوة إلى الإسلام بمكة وتسع سنوات بعد الهجرة حين أعلن أبو بكر رضي الله عنه في السنة التاسعة من الهجرة عندما حج بالمسلمين أميراً عليهم، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذيع في الناس ألا يحج بعد ذلك العام مشرك وألا يطوف بالبيت عريان، فقضى الإسلام على الشرك والمنكر وطهر الله بيته المعظم والمشاعر من كل ما دخله مما لا يتفق مع الحق والخير والإسلام، وبعد ذلك حج الرسول صلى الله عليه وسلم حجة وداعه.

وكذلك كان الأمر بالنسبة لسائر أركان الإيمان وأركان الدين، ومن ذلك الصوم الذي دخل فيه من الشرك والوثنية ما كان قد دخل في غيره من الأركان.

وجاء في «قاموس الكتاب المقدس»[٢] لدى اليهود والنصارى في مادة «صوم أصوام» قوله: «هو الإمساك عن الطعام أو موته. صام موسى أربعين نهاراً وأربعين ليلة على جبل سينا، كان خلالها يفاوض الله ويستعد لاقتبال الكلمات العشر... وبأمر الملاك سار إيليا إلى جبل حوريب

---

(٢) تأليف نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين، صدر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧١ م.

لا يأكل ولا يشرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة حتى تراءى الله له.

ويقول هذا القاموس عن يسوع: «واجه تجربته بعد صوم أربعين نهاراً وأربعين ليلة وبعده بدء إعلان بشارة الإنجيل».

ويقول: «وقد أخذت بعض الكنائس من حياة السيد ورفيقيه في التجلي هذه الفترة الأربعينية وجعلت الصوم الأربعيني السابق لعيد الفِصْح قانوناً وذلك في المجمع الخامس ثم في السادس المنعقد في السنة ال ٦٨٢».

وكان الصوم المشروع عند المسيحيين مثل صوم اليهود، يأكلون في اليوم والليلة مرة واحدة، فغيروه وصاروا يصومون من نصف الليل إلى نصف النهار[٣].

وصوم المسيحيين مختلف فيما بينهم في عدد الأيام وفي طريقة الصيام، فمنهم من يصوم عن اللحم، ومنهم من يصوم عن السمك أو عن اللبن والبيض[٣].

---

(٣) الديانات والعقائد في مختلف العصور، تأليف أحمد عبد الغفور عطار، الجزء الرابع صفحة ٣٥٨ - ٣٥٩ الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م).

والصوم الكبير عند المسيحيين الأرثوذكس خمسة وخمسون يوماً قبل عيد القيامة، وصوم الميلاد أو الصوم الصغير عند المسيحيين أربعون يوماً قبل عيد الميلاد، ويبدأ عند المسيحيين الغربيين في ١٦ نوفمبر، وعند الشرقيين في ٢٦ نوفمبر.

والكاثوليك يصومون اليوم السابق لعيد الفِصْح، كما يصومون عن السمك يوم الجمعة، وأيام الصوم عند القبط والأرمن أكثر من ذلك.

وكان المسيح يصوم الأربعين كما صام موسى من قبله، ولكن رؤساء الكنيسة غيروا فوضعوا أنواعاً من الصوم ابتدعوها من عند أنفسهم.

الصوم في الديانات الوثنية

- ١ -

الإسلام هو الدين الوحيد الحق الباقي على حقيقته دون أن يدخله تحريف أو تغيير، فالفرائض ما تزال كما كانت، وتُؤَدى كما كان يؤديها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم.

فالصلوات المفروضة والسنن المؤكدة باقية على جدتها وكذلك لم يتغير من شروطه وأحكامه شيء، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وأمهات المؤمنين والصحابيات يصومون: يتناولون السحور، ثم يمسكون من الفجر حتى تغرب الشمس فيُفْطِرون، ونحن مسلمي هذا الزمان، نفعل مثلما كانوا يفعلون، نصوم، فنتناول السحور، ثم نمسك من الفجر حتى تغرب الشمس فنفطر، وهكذا أخذنا الصيام كل أمة الإسلام عن كل أمة الإسلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحفظ لنا الفرائض والأحكام كتاب الله وسنةُ رسوله اللذان ما يزالان يحفظانها حتى يومنا هذا وإلى أبد الدهر، ويتلقى الخلف عن السلف والأبناء عن الآباء كل العبادات.

وكتاب الله جل جلاله محفوظ من قبل الله لم يتغير منه حرف. ولا يمكن أن يتغير منه شيء أبداً، فلو أن مسلماً من مكة المكرمة أمَّ أناساً من الصين أو اندونوسيا في بلدهم وقرأ خطأً في سورة الصمد هكذا. ﴿هو الله أحد. الله الصمد﴾ لرده المأمومون من أبناء تلك الديار وصاحوا: ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد﴾ فهنا أسقط الإمام كلمة ﴿قُلْ﴾ ففطن المأمومون غير العرب.

بل لو أخطأ الإمام في فتح أو ضم أو كسر لفطن المأمومون للغلط وردوه إلى الصواب، فلو قرأ قوله تعالى: ﴿فَذَلَّلْنَاها لَهُمْ فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ﴾ بضم الراء بدل الفتح لتعالت أصوات المأمومين بالصواب: ﴿رَكُوبُهُمْ﴾.

وكنت ذات مرة أصلي الفجر في مسجد بباكستان، وتقدم للإمامة عالم أزهري من مصر قدمه الإمام الراتب الباكستاني فقرأ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلاً وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً﴾ قرأ ﴿سَلاَسِلَ﴾ منونة فضج الناس يهتفون:

﴿سَلاَسِلَ﴾ يكررونها، والشيخ الإمام مصرٌّ على قراءته، وتركه المأمومون حتى أتم صلاته وأتموا معه، وانبرى يخاصمهم وينعتهم بالجهل، لأن التنوين قراءة صحيحة، وكان بين المأمومين بضعة نفر من الباكستانيين يحسنون العربية، وما كان أحد منهم يعرف هذه القراءة، وسألني رأيي فخطَّأتُ عمله، لأن كل الناس لا يعرفون هذه القراءة إلا من وقفوا على القراءات وهم نَدْرة نادرة، والناس المتعلمون الذين يحفظون قواعد العربية يعرفون أن صيغة منتهى المجموع مثل سَلاسِلَ ممنوعة من الصرف، ولا يصح «التشويش» على المصلين!

ويظهر مما ذكرته حرص كل المسلمين على حماية قرآنهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وإسلامهم من كل عدو يريد أن يُلْبِس عليهم دينهم أو يحرف كتابهم أو يكذب على رسولهم عليه صلوات الله وسلامه، ولهذا بقي كل هؤلاء كما كان في عهد الرسول الكريم يتوارثونه ويتلقونه خلفاً عن سلف.

فالصوم الذي يصومه المسلمون اليوم هو صومُ الرسول نفسِه وصومُ الصحابة عينُه لم يلحقه تغيير في شيء من شروطه وأركانه وواجباته، لأن الدين نفسه سليم كل السلامة وكذلك كل أركانه.

أما ديانات التوحيد الأخرى فلم يبق منها في عصرنا غيرَ اليهودية والنصرانية اللتين لم تعودا توحيداً، بل انقلبنا وثنيتين، واختفى إنجيل المسيح عليه السلام باعتراف رسول المسيحيين وقديسهم الأكبر المسمى بولس، كما أن ما يُسمَّى «التوراة» التي بأيدي الناس كتبت باعتراف الباحثين الكبار من اليهود والنصارى بعد موسى عليه السلام بثمانمئة سنة.

فالإنجيل والتوراة - هذان - ليسا ما نزل من الله، وكلاهما محرف باعترافهم.

وما دامت كتبهم المقدسة محرفة، ودينهم قد تغير فطبيعي أن كل عباداتهم وفرائضهم الصحيحة قد تحرفت وتغيرت وصارت شركية وثنية، ولهذا عددناها مع الوثنيات.

وكل صيام اليهود بما فيه صوم الكفارة: صوم يوم واحد لا يمكن الجزم بأنه الصوم الصحيح، والشيء الذي يمكن الجزم بصحته صوم يوم عاشوراء الذي صامه موسى عليه السلام، لأن رسول الإسلام محمداً عليه الصلاة والسلام قد اعترف به وأمر المسلمين بصيامه قبل فرض الله صوم رمضان.

أما أيام الصوم الأخرى فقد أضيفت مع مرور الزمن، ولهذا خلت أسفار التوراة الخمسة من ذكر الصوم إلا صوم يوم الكفارة الذي جاءت الإشارة إليه في بعضها - كما سبقت الاشارة إليه - ولم يجيء ذكره صراحة، ولكن رجال الدين فسروا التذليل بأنه الصيام، وكان القصد التذلل لإلههم والابتهال إليه.

وفي أيام النبي زكريا كانت صنوف من الصوم مفروضة في الشهر الرابع والخامس والسابع والعاشر تذكاراً لحصار القدس في الشهر العاشر وسقوطها في الشهر الرابع، وخراب الهيكل في الشهر الخامس، ومقتل جَدَلْيا واليهود في الشهر السابع[1].

ويختلف صيام اليهود باختلاف الأيام والمناسبات، فصيام يوم الكفارة ويوم ذكرى الهيكل يبدأ كل منهما من غروب الشمس إلى غروب الشمس من اليوم التالي يمسكون عن الأكل إمساكاً تاماً، ويلبسون المِسْحَ[2] على الأجساد، وينثرون الرماد على الرؤوس، ويتركون الأيدي غير

---

(١) قاموس الكتاب المقدس.

(٢) المِسْح (بكسر الميم وسكون السين): نسيج الشعر يلبسونه تقشفاً.

مغسولــة، والرؤوس غـير مدهـونة، ويصرخون ويبـكون ويتضرعون.

وفي غير هذين اليومين يصومون أياماً من الشروق إلى الغروب، وأياماً كثيرة من شروق الشمس إلى الظهر لا يأكلون ولا يشربون، فإذا انتهوا من الصوم عادوا إلى الأكل والشرب، ولا يصومون يوم السبت ولا الأهلة ولا الأعياد.

وقد سبق أن ذكرنا أن المسيح عليه السلام صام أربعين يوماً وليلة دراكاً وهو في البرية عندما ذهب لميقات ربه كما تذكر المصادر المسيحية.

وكان الفَرِّيسيون يصومون يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، ولكن تلامذة المسيح لم يصوموا في حياة المسيح، إذ لا يصح الصيام والعرس قائم و « العريس » بينهم، وإنما أخذوا يصومون فيما بعد.

وكان أنبياء كنيسة انطاكية ومعلموها يصومون، إلا أن صيام الكنائس المسيحية بما فيها كنيسة انطاكية يأتى بعد عيد القيامة.

والصيام عند المسيحيين ليس فرضاً. وهو عندهم إمساك لبعض الوقت عن بعض الطعام، مثل الإمساك عن بعض اللحوم، وقد يمسكون بعض الأوقات عن الأكل كله. وفي بعض أيام الصوم يكتفون بوجبة واحدة، وإذا أمسكوا فيمسكون من بعد منتصف الليل.

الصوم في الديانات الوثنية

- ٢ -

إن آية الصوم في القرآن وهي ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ من دلائل النبوة، لأن أبناء أمم الحضارة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم كاليونانيين وأبناء مصر والعراق وفارس والهند ما كان يعرف بعضهم شيئاً عن صيام بعضهم الآخر بالإحاطة والشمول اللذين عرفهما نبي الإسلام والمسلمين من القرآن الكريم.

ومن أدرى محمداً بذلك كله إذا كان القرآن كلامه وليس بكلام رب العالمين؟ إذا كان فلاسفة اليونان وحكماء الهند وفارس وعلماؤهم وعلماء العراق ومصر لا يعلمون أن الصيام كان مفروضاً على الأمم مؤمنيها وغير المؤمنين منها فكيف يتسنى لمحمد أن يعلم ما جهله أقطاب العلم والمعرفة في العالم إذا كان ما جاء في القرآن من محمد نفسه وليس من الله.

إن محمداً صلى الله عليه وسلم نشأ في أمة أمية قلَّ فيها الكاتبون والقارئون، وندر بينهم العلماء ذوو العلم الغزير والثقافة الواسعة، حتى الذين رحلوا إلى أمم الحضارة وعاشروهم لم يكن علمهم واسعاً وغزيراً، حتى أن أهل مكة كانوا في بعض أمور الدين والغيب يسألون أهل الكتاب اليهود والنصارى.

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يفارق مكة إلا مرتين: مرة مع عمه أبي طالب في رحلة إلى الشام، ولم تطل، وكان محمد حينئذ طفلاً لم تظهر منه في طفولته أمارات النجابة والنبوغ والعبقرية، بل كان كغيره من عامة الأطفال، وما كان الأمر ليختلف لو كان نجيباً عبقرياً، فقد كان في مكة عباقرة، ولكن ثقافتهم محدودة، وما كانوا يعرفون شيئاً عن الأمم البعيدة عنهم، أما من كانوا يجاورونهم فما يعلمونه عنهم يسير.

ونخلص من هذا إلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم ماكان في رحلته هذه وهو طفل ليتعلم إلا ما يشاهد بعينيه، وما كان يسمع لغير عمه ومن معه، وليس هؤلاء بعلماء.

وأما رحلته الثانية فقد سافر في تجارة أجيراً لامرأة غنية من قريش يصحبه غلام لها، وما كان محمد يتطلع لغير

مقصده الذي كانت الرحلة من أجله، وهو بيع ما معه من بضائع، وقد باع وشرى وعاد سريعاً، إذ لم تطل غيبته، وهناك أناس من مواطني محمد أقاموا في بعض بلدان الحضارة طويلاً فلم نجد لديهم من العلم عن الأمم الأخرى إلا ما لدى رحالة غير مؤرخ.

فنشأة محمد لا تتيح له علماً غزيراً واسعاً، وتضيِّق دائرة علمه أميته وعدم تلقيه شيئاً من علوم عصره وبلده، فكيف يأتي بالعجب العجاب من العلم بديانات الأمم البعيدة والقديمة وطبائعهم وحياتهم وهو أمي من عامة الناس؟ ما أدراه أن الصيام كان مفروضاً على الأمم السابقة؟

إذا كان هذا علم محمد صلى الله عليه وسلم فقد فاق الأولين والآخرين، وجاء بما يعد من علم الغيب الذي لا يتاح لبشر أبداً ولو كان رسولاً.

وإذا كان محمد من عامة الناس فما جاء به من العلم ليس من علم بني آدم، لأنه لا يتاح لهم، لأن ما جاء به جديد على البشرية، إذ ما كان أحد ولا جماعة يعلمون أن الصيام كان معروفاً ومفروضاً على الأمم السابقة.

وما دام العلم بذلك قد تلقاه العالم من محمد صلى الله عليه وسلم الذي عرف تاريخه كله فما لذلك إلا تفسير واحد ألا

وهو أن مصدر ذلك العلم هو رب محمد رب العالمين ذكره له في كتابه المبين الذي أوحى به إليه.

إنه ليس من علم البشر ولا من علم محمد، بل هو من علم الله، فما كان الناس يعرفون تلك الحقيقة، بل ما كان العالم يعرف أن قبائل ما تزال على ختم الله إلى عهد قريب تصوم:

إذن، القرآن ليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما هو كلام علام الغيوب خالق الأرض والسماوات وما فيهن. وقد صدق الله عندما ذكر في محكم كتابه عندما فرض صيام رمضان على محمد وأمته أن الصوم كان مفروضاً على من قبلهم، وقد ثبت ذلك ثبوتاً قاطعاً.

وما كان محمد يعرف ذلك قبل هذه الآية، فعندما كان بمكة وجاءته النبوة والرسالة ما كان يعرف صيام الأمم حتى إذا هاجر إلى المدينة كان يوم وصوله إليها يوم صيام اليهود فسألهم فأخبروه.

وهذه الحادثة تثبت أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم قبل يوم وصوله المدينة شيئاً عن صيام اليهود الذين كانوا بين يديه.

فإذا كان لا يعلم ذلك فمن البداهة أنه لا يعلم عن صيام

غيرهم من الأمم، وهذا من براهين صدق نبوته صلى الله عليه وسلم.

كان الانبياء وأقوامهم يصومون، فنوح ومن جاءوا بعده من الرسل صلوات الله عليهم كانوا يصومون، وكل ديانات التوحيد عرفت الصيام الذي كان مفروضاً عليهم.

وكذلك كان الأمر بالنسبة لأصحاب الديانات الوثنية، فقدماء المصريين كانوا يصومون، وانتقل منهم إلى اليونان فالرومان فكانوا يصومون، وكان النساء يصمن مثل الرجال فريضة مكتوبة عليهم جميعاً.

وفي إفريقيا قبائل كانت مجهولة معزولة في الأماكن التي يعيشون فيها. ثم اكتُشِفوا في القرن العشرين فإذا هم يصومون على معنى من معانيه، إذ يمسكون عن الأكل.

وفي الديانات الوثنية القديمة صوم، فالمجوسية تفرض على رعاياها الصوم، وإن كانت تؤثر طبقة خاصة بالوصية على الصيام.

ولم تخل الديانات الوثنية في القارة الهندية من الصوم، فقد عرفته الجينية كما عرفته الديانة الهندوكية حيث كان أتباعها قبل الإسلام يصومون، ولكل طائفة من هؤلاء

الأتباع صومهم، وإن كانوا يشتركون في الامتناع عن الأكل. ويحيون الليل بالعبادة وتلاوة الكتب المقدسة.

وهناك أيام خاصة بالنساء يصمنها رجاء تهذيب النفس وتزكيتها ولا يشترك الرجال معهن في هذا الصيام الخاص بهن.

ومع أن للهندوس كتاباً مقدساً يسمى « مَنوسْمَرْتي » تضمَّنَ شريعتهم وفرائضهم وأحكامهم وعباداتهم المختلفة وطبقاتهم وحياتهم الاجتماعية والدينية وغيرها فإنه خلا من ذكر الصيام خلواً تاماً.

ويقول الإمام ابن حجر في كتابه العظيم « فتح الباري » ٤/١٠٨ - ١٠٩ : ويقع الصوم من عباد النجوم وأصحاب الهياكل والاستخدامات، إذ يتعبدون بالصيام، ومنهم من يعتقدون إلَهية الكواكب.

وفي عصور ما قبل التاريخ امتنعت قبائل عن أكل لحوم بعض الحيوان، وقيل في تعليل ذلك اعتقادها أن بين أفرادها وبين فصائل تلك الحيوانات نسب، وهذا الامتناع إنما هو ضرب من ضروب الصيام.

وموجز القول إن الصوم الديني عرف في العراق القديم،

عرفه البابليون والأشوريون، كما عرفه المجوس، لأن التقدم الحضاري يقترن بتقدم في الفكر الديني، وطبيعي أن تعرف أمم الحضارة الصيام. إذ ما من حضارة قديمة إلاّ عرفه أهلها.

وعندما اكتُشِفت أمريكا الوسطى أظهر البحث في حضاراتها آثاراً دلت على أن سكانها الأقدمين عرفوا الصوم قبل مولد المسيح عليه السلام.

وإذا أظهر البحث في الدنيا الجديدة وفي افريقيا لدى الأمم البدائية وجود الصوم بين الفرائض الدينية فإن وجود الصوم عند الأمم الراقية المتحضرة أمر طبيعي.

فريضة الصوم على الحيوان

كل ما فرض الله سبحانه وتعالى على العباد من الفرائض والعبادات لا يضطلع بأمانة الأداء إلا العاقل، ومن حُرم العقلَ سقط عنه التكليف، لأن العقل مداره.

فكل فريضة أوجبها الله علي العبد من صوم وصلاة وحج تسقط عنه إذا فقد العقل، لأن العاقل هو المكلف، أما فاقد العقل فلا يكلف بشيء من تكاليف العبادة.

هذا في بنى الإنسان الذي وهب الله له من المواهب ما لم يهبه لأحد من خلقه، ومع هذا أسقط التكليف عمن سلبه العقل، فطبيعي ألا يكلِّف الله الحيوان بفريضة مما كلف الإنسان، وإن كان الخلق جميعاً من حيوان ونبات وجماد وملائكة مكلفون بعبادة الله عز وجل: ﴿تُسبِّحُ له السماواتُ السّبْعُ والأرض ومنْ فيهنَّ وإن منْ شيء إلاّ يُسَبِّحُ بحمده ولكنْ لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾[1].

---

(١) الإسراء: ٤٤.

فكل مخلوق يعبد الله جل جلاله، كل ذرة من ذرات الوجود يدين لله ويسبح بحمده، والتسبيح من أعلى مراتب العبادة والإيمان.

هذا أمر حق، وحق - أيضاً - أن الله لم يكلف الحيوان بما كلف به الإنسان من فرائض كالصوم والصلاة والزكاة والحج والعمرة.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى أسقط عن الإنسان الفاقد عقله الفرائض رحمة به فإن هذه الرحمة أعفت الحيوان من التكاليف.

ومعروف أن الصوم صنوف. وأهمها وأظهرها الإمساك عن الطعام والشراب بقصد، فما كان طاعة لله كان الإمساك أو الصيام عبادة يثاب عليها الصائم، وما كان بسبب من أسباب الدنيا مثل قصد الصحة كالحمية أو قصد الرشاقة فذلك صيام دنيا، وليس بعبادة.

وهناك إمساك عن الطعام والشراب يجبر عليه الإنسان من قبل الظلمة بقصد التعذيب، كما يُفْعَل بالأسرى والسجناء.

ويقطع الطعام والشراب عن الحيوان من قبل صاحبه،

إما لمرضه أو لسهو أو لموته فيبقى مدة صائماً.

أما أن يفرض على الحيوان الصوم بأمر إلّهي أو بقصد العبادة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى فذلك أمر يدعو إلى العجب العجاب.

وما بشرائع السماء فرض عبادة على الحيوان، لأن التكاليف على العقلاء وما هو منهم، فهو بنجوة عن الفرائض والتكاليف.

ولكن جاء في الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى في أحد أسفار العهد القديم ذكر فريضة الصوم على الحيوان، إذ جاء في سفر يونان - وهو المعروف في القرآن الكريم وعند المسلمين بيونس عليه السلام - بالإصحاح الثالث:

«ثم صار قول الرب إلى يونان ثانية قائلاً: قم، اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة، ونادِ لها المناداة التي أنا مكلمك بها.

«فقام يونان وذهب إلى نينوى بحسب قول الرب، أما نينوى فكانت مدينة عظيمة لله مسيرة ثلاثة أيام، فابتدأ يونان يدخل المدينة مسيرة يوم واحد ونادى وقال: بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى.

« فآمن أهل نينوى بالله، ونادوا بصوم، ولبسوا مسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم، وبلغ الأمر ملك نينوى فقام عن كرسيه، وخلع رداءه عنه، وتغطى بِمسْح[٢]، وجلس على الرماد، وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلاً: لا تَذُق الناسُ ولا البهائم ولا البقر ولا الغنم شيئاً. لا تَرْعَ ولا تَشْرَبْ، ولْيتغَطَّ بمسوحٍ الناسُ والبهائمُ. ويصرخوا إلى الله بشدة، ويرجعوا كلٌّ واحد عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم، لعل الله يعود ويندم ويرجع عن حُمُوِّ غضبه فلا نهلك.

« فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم، فلم يصنعه ».

ثم يجيء في ختام الإصحاح الرابع: « فقال الرب: ... أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد بها أكثر من اثنتي عشرة رِبْوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم عن شمالهم، وبهائم كثيرة ».

وإن هذا الكفر المروي في كتبهم المقدسة حيث تصف

---

(٢) المِسْح، بكسر الميم وسكون السين: ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً للجسد.

الله بصفات النقص والعيب كثير نجم عن تحول ديانة موسى وعيسى من التوحيد والإيمان إلى الشرك والوثنية.

وأما ما جاء في سفر يونان (يونس) من الصوم المفروض على الحيوان فغير مستغرب أن يأتي في أسفار حفلت بالخرافات والأساطير.

ومقصود السفر من الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم الأطفال، وأما الربوة فهي الجماعة العظيمة نحو عشرة آلاف نسمة، ويبلغ مجموع الاثنتي عشرة رِبْوة مئة وعشرين ألف طفل وسعتهم هم والبهائم الكثيرة رحمة الله فلم ينفذ وعيده بتدمير نينوى ومن بها من الناس والحيوان بعد أن تقربوا إلى الله بالصوم والخشوع والابتهال.

وهذا الذي جاء في سفر يونان أول نص على صوم الحيوان، ولم يمر بي سواه في كتاب.

اليهود وصوم عاشوراء

كانت ديانة موسى عليه السلام تحوي أركانها الصوم، لأنه ركن في كل ديانات التوحيد، وديانة موسى توحيد خالص، فلما حرَّفها اليهود وقلبوها ديانة وثنية غيروا صيام التوحيد، وإن كانت أسفار اليهود المقدسة خالية من نص على الصوم في وقت معين إلا صيام الكفارة الذي لم ينص عليه بلفظ الصوم أو الصيام، وإنما فسره الشراح به.

والنص الذي ورد هو ما جاء في سفر اللاويين - وهو أحد خمسة الأسفار التي تعرف بالتوراة - ١٦/١٩: «ويكون لكم فريضة دهرية أنكم في الشهر السابع عاشر الشهر تذللون نفوسكم... لأنه في هذا اليوم يُكَفَّر عنكم لتطهيركم الخ».

وتكرر هذا المعنى في سفر العدد - وهو من أسفار التوراة - ٢٩/٧: «وفي عاشر هذا الشهر السابع يكون لكم محفل مقدس وتذللون أنفسكم».

ولا يصرح السفران المقدسان لدى اليهود بلفظ الصوم، وإنما فسر الشراح تذليل النفوس بالصوم فصام اليهود هذا اليوم الذي هو اليوم العاشر من الشهر السابع في السنة العبرية.

ويعرف هذا اليوم الذي يصومه بيوم الكفارة. وهو- حسب تعريفهم- يوم صوم واتضاع وتكفير عن خطايا شعب إسرائيل، ويقوم رئيس الكهنة في هذا اليوم بتقديم ذبائح التكفير.

ويمتنع اليهود في هذا اليوم عن العمل، ويجتمعون في احتفال مقدس يصومون في أثنائه تكفيراً من الشعب كله عن خطاياه.

وهذا هو الصوم الوحيد المطلوب منهم حسب الناموس[١].

ويصف «قاموس الكتاب المقدس» ذلك الاحتفال بقوله: «كان رئيس الكهنة ينزع في ذلك اليوم زينته الرسمية، وبعد أن يستحم يرتدي ثياباً بسيطة مقدسة مصنوعة من كتاب أبيض الخ».

---

(١) قاموس الكتاب المقدس.

ثم يصف تقدمة الذبائح ومراسيم الاحتفال الذي ينتهي بخلع رئيس الكهنة ثياب الكتان ويعود إلى زينته الرسمية.

ويبدأ الصوم من غروب الشمس إلى غروبها من اليوم التالي، وكانوا خلال هذه الفترة يمتنعون عن الطعام فإذا انتهت أفطروا.

ويعرف هذا اليوم عند المسلمين بيوم عاشوراء، وفي صحيح الإمام البخاري[٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: « ما هذا »؟ قالوا: هذا يوم صالح. هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: « فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه ».

وفي صحيح الإمام مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فوجد اليهود يصومون عاشوراء فسئلوا عن ذلك فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون فنحن

---

(٢) طبعة بولاق، الجزء الثالث، صفحة ٤٤.

نصومه تعظيماً له، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «نحن أولى بموسى منكم» فأمر بصومه».

وفي مسلم أيضاً: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرّق فرعون وقومه؛ فصامه موسى شكراً فنحن نصومه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم» فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه.

وفي «النهاية» لابن الأثير مادة عشر: «عاشوراء؛ هو اليوم العاشر من المحرم، وهو اسم «إسلامي» وليس في كلامهم فاعولاء بالمد[٣].

ومعروف على التحقيق أن هجرة النبي صلى الله عليه

(٣) يقصد أنه ليس في كلام العرب كلمة على هذا الوزن غير عاشوراء، وعن ابن دريد أنه اسم إسلامي، وأنه لا يعرف في الجاهلية، ورد ذلك عليه ابن دحية بأن ابن الأعرابي حكى أنه سمع في كلامهم خابوراء، ويقول ابن حجر: وهذا الأخير لا دلالة فيه على رد ما قال ابن دريد، وذكر الجواليقي: ضاروراء، وسادوراء، ودالولاء من الضارِّ والسارّ والدالّ (فتح الباري/ ٢٤٥ المطبعة السلفية).

وسلم كانت في شهر ربيع الأول، وفي « فتح الباري »: « ولا شك أن قدومه كان في ربيع الأول فحينئذ كان الأمر بذلك في أول السنة الثانية، وفي السنة الثانية فرض شهر رمضان، فعلى هذا لم يقع الأمر بصيام عاشوراء إلا في سنة واحدة ثم فُوِّض الأمر في صومه إلى رأي المتطوع ».

ويظن كثير من الناس أن صيام اليهود يوافق يوم العاشر من المحرم، وهو وهم، فما كان اليهود يصومون عاشوراء: العاشر من المحرم، بل هو يوم عاشوراء آخر، ولا يسمونه عاشوراء. ولكنه يقع في اليوم العاشر من الشهر السابع من السنة العبرية، ولذلك التبس الأمر على شُرّاح الحديث فظنوا أن صيام اليهود وقع يوم عاشوراء، ولم يقع ذلك.

ومعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصل المدينة ودخلها يوم الاثنين المصادف يوم صيام اليهود وهو اليوم العاشر من شهر تشرين الذي قابل - في تلك السنة - يوم العشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ م وهو اليوم العاشر من شهر تشرين سنة ٤٣٨٣ عبرية[٤].

---

(٤) هذا حساب العلامة المصري الكبير محمود باشا الفلكي. راجع كتاب « الإسلام دعوة عالمية » للأستاذ العقاد في البحث الذي عنوانه « ألوان من الصيام ».

وقد جاء في مؤلفنا « حجة النبي صلى الله عليه وسلم »[٥] صفحة ٤٥٢ أن العلامة الكبير محمود حمدي باشا الفلكي قد حقق يوم مغادرة الرسول صلى الله عليه وسلم مكة مهاجراً إلى المدينة وبصحبته أبو بكر الصديق وقال: إنه يوم الاثنين غرة شهر ربيع الأول الموافق ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ م، ودخل قباء يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية

وإذا كان شراح الحديث وقعوا في وهم حملهم على اضطراب أقوالهم في تحديد يوم عاشوراء يوم صيام اليهود فإن محمود باشا الفلكي قد انتهى إلى وضع حد لما كان قد نجم من الوهم والاضطراب، وقد أزالها بتحقيقه الذي ذكرناه، وكان قوله فيصل الأقوال فيما شجر من خلاف في هذا السبيل.

وإذا كان موسى قد صام يوم عاشوراء حسب تقويمهم شكراً لله سبحانه وتعالى لإنجائه فقد جاء في الآثار أن نوحاً عليه السلام قد سبق إلى صيامه، لأنه كان يوم رسو سفينته على الجودي، فصامه محمد صلى الله عليه وسلم شكراً لأنه أحق وأولى بنوح وموسى.

---

(٥) الطبعة الثانية سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م).

افتراء على الصوم الإسلامي

أعداء الإسلام يفترون عليه الكذب وهم يعلمون، فمنهم من زعموا أن الإسلام صورة مشوهة من المسيحية، وزعم بعضهم أنه صورة حسنة منها، وأراد هؤلاء بما زعموا أن يظهروا بمظهر المنصف حتى يخدعوا الناس ويحملوهم على التصديق.

وزعموا أيضاً أن الإسلام دين ملفق من ديانات مختلفة، أخذ من كل دين شيئاً حتى جمع من شتات ما أخذ ما سماه الإسلام.

وبدأوا من باب الإسلام الأول وهو شهادة ألا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وزعموا أن هذا التوحيد مأخوذ من ديانة اليهود، وبعضهم زعم أنه مأخوذ من توحيد أخناتون أحد ملوك مصر.

وهذا افتـراء محض، فتوحيد اليهود يقوم على عبادة اليهود إلّها واحداً هو «يَهْوَهْ» ولا يعبدون إلّهاً سواه،

ويهوه مثل الأب لأولاده، إنهم ينتسبون لأب واحد، ولكنهم يعترفون بآبـــاء الآخرين، ولا ينكرون أبوتهم لأولادهم، وكذلك اليهود يعترفون بآلهة الآخرين دون أن يعبدوها لأنها لا تخصهم.

فهذا التوحيد اليهودي شرك لا يشبهه توحيد الإسلام الذي لا يعترف بآلهة الآخرين، ويحاربها. ولا يعترف إلا بإله واحد هو رب العالمين، ومن عداه باطل محض.

أما توحيد أخناتون فيقوم على الكفر بكل الآلهة والأرباب التي كانت بمصر، وأنكرها جميعاً مثبتاً الألوهية لإله واحد ليس إله الإسلام وإن كان هناك صفات مشتركة بين الإله الحق وإله أخناتون الذي يدل وصفه إياه على أنه قرص الشمس.

وتوحيد أخناتون لا يخلو من وثنية ومن نقص، وإن كان وحَّده وأنكر ما عداه، ومن وصفه إياه قوله: « ذهب ليستريح » وقوله يخاطبه: « إذا أنت غربت في الأفق الغربي من السماء ».

وتوحيد أخناتون في رأي الإسلام توحيد باطل قائم على التجسيم والنقائص، والله الحق جل جلاله لا تأخذه سنة

ولا نوم، وكامل كمالاً مطلقاً، ومنزه تنزيهاً تاماً عن كل نقص وعيب.

ونحن لسنا بصدد تفنيد هذه الأباطيل في هذه الأحاديث المقصورة على شهر القرآن والصوم في الإسلام وغيره من الأديان.

ومن هذه الأباطيل: أبطولة زعم فيها بعض أعداء الإسلام أن صومه المفروض قد اقتبسه محمد صلى الله عليه وسلم من ديانة الصابئة.

نعم، زعم بعض الباحثين الغربيين - ومنهم الدكتور جاكوب الألماني وإدوارْدِ وِسْتَرْمارْكْ الفنلندي - أن الصوم الإسلامي مأخوذ من الصابئة والمانوية، لأن فيها صيام الثلاثين يوماً.

وفي كتاب «غرائب النظم والعادات والتقاليد» للدكتور علي عبد الواحد وافي ١/٧٦ - ٧٩:

«حاول كثير ممن في قلوبهم مرض وممن وقفوا جهودهم على النيل من الإسلام والكيد تحت ستار البحوث التاريخية والتحقيقات الاجتماعية أن يرجعوا أنواع الصيام الدورية عند المسلمين إلى نظائرها عند الصابئة والمانويين، ووجهوا

أكبر قسط من جهودهم الآثمة إلى إرجاع صيام رمضان على الأخص إلى صيام الثلاثين عند هؤلاء، كما حاولوا أن يرجعوا صلواتنا إلى صلواتهم فزعموا أن محمداً عليه السلام قد نقل عن هاتين الديانتين: ديانة الصابئين وديانة المانوية معظم ما جاء به من صلاة وصوم، وإن الأوقات التي شرعت فيها صلوات المسلمين وصيامهم، واتصال هذه الأوقات بحركات الشمس والقمر والكواكب، كل هذا يتم على الأصول الصابئية والمانوية التي استمرت منها هذه العبادات.

«ومن هؤلاء الدكتور جاكوب الألماني، فقد قرر في رسالة كتبها في صيام رمضان بعد تحقيقات حسابية طويلة، وموازنات بين التقويم العربي من جهة، وبين التقويمين البابلي والميلادي من جهة أخرى أن أول سنة شُرِعَ فيها الصيام وهي سنة ٦٢٣ م كان أول يوم من رمضانها يوافق الثامن من شهر آذار، أي أن أول شهر صامه المسلمون كان موافقاً في مبدئه ونهايته لتاريخ صيام الصابئين، ويرى الدكتور جاكوب في هذا دليلاً قاطعاً على أن محمداً قد نقل صومه عن شريعة الصابئين».

وذهب وسترمارك إلى ما يقرب من هذا الرأي مع شيء من الاعتدال والحيطة في التعبير إذ يقول: «إن وجود

الشبه بين صيام رمضان وصيام الصابئين والمانويين لبالغ الوضوح مبلغاً يحمل الباحث على أن ينظر إلى هذه الأنواع الثلاثة من الصيام نظرته إلى ثلاث شعب متفرعة من أصل واحد، فمن الراجح أن يكون محمد قد نقل صيامه عن الصابئين أو عن المانوية أو عنهما معاً».

ويرد الدكتور وافي مزاعمهم بقوله: «لم يحدث في الجاهلية اتصال فكري أو ديني بين قريش التي نشأ فيها الرسول عليه السلام وبين المانوية والصابئين، وقد حال دون هذا الاتصال أمور كثيرة، منها: اختلاف اللغة والرسم والثقافة والحضارة، ومنها: بعد المسافة بين منازل هؤلاء ومنازل أولئك، فقد كانت بلاد الصابئين والمانوية على حدود فارس من الغرب على حين أن القرشيين كانوا يقطنون الحجاز».

ويقول: «ومما يرد به كذلك على أصحاب هذا الإفك أن صوم رمضان يختلف اختلافاً جوهرياً في شروطه وقواعده ووقته وطريقة أدائه ومقاصده وحكمة تشريعه عن صوم الثلاثين عند المانوية والصابئين، فليس بينهما من وجوه شبه إلا الاتفاق في عدد الأيام وتتابعها، وهذه ناحية شكلية من التعسف اتخاذها دليلاً على أن أحدهما منقول عن

الآخر ؛ على أنهما في هذه الناحية نفسها يختلفان اختلافاً غير يسير، فالصيام الإسلامي مدة شهر قمري على أن صيام الصابئين والمانوية مدته ثلاثون يوماً تبدأ بالثامن من شهر شمسي، والصيام الإسلامي يبتدىء بابتداء الشهر وينتهي بانتهائه، أما صيامهم فيبدأ من الثامن ولا ينتهي إلا في الشهر التالي له ».

وسنذكر في الحديث القادم بمشيئة الله الدليل الذي يهدم حجة الدكتور جاكوب الألماني.

صوم الإسلام
غير مأخوذ من الصابئة وغيرهم

لقد ذكرنا في الحديث السابق دعوى الدكتور جاكوب الألماني أن صيام المسلمين مأخوذ من الصابئة الذين يصومون ثلاثين يوماً ابتداء من يوم الثامن من شهر آذار ويكملون ما بقي من الثلاثين يوماً من الشهر الذي يليه وهو شهر نيسان.

وزعم الدكتور جاكوب أن أول صيام صامه المسلمون وافق يوم أول رمضان يوم ٨ آذار من سنة ٦٢٣ م.

وهذا هو الدليل الفذ القوي الذي قدمه الدكتور جاكوب يثبت به دعواه ليثبت لمن اطلعوا عليها أن محمداً رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام أخذ صومه الذي فرضه على المسلمين من الصابئة.

وقيل: إنه أنفق سنوات كثيرة في بحث هذه المسألة وتحقيقها حتى انتهى إلى ما حسبه دليلاً لا ينقض فزعم ما زعم.

ونحن قمنا بتحقيق حسابه وانتهينا إلى أن دعواه باطلة، وأن دليله الذي قدمه كان مختَلَقاً وغير صحيح، ولكنه عندما زعم زَعْمَتَه لم يخطر بباله أن بين من سيطلعون على دعواه سيحققونها ويفحصونها رغبة في الحق. وقد صنعنا ما لم يدر بخلده.

إن بعض الباحثين المحققين الفلكيين المدققين ألفوا تقويمات ضمت التاريخ القبطي والميلادي والإسلامي، وضبطوا هذه التقويمات وحسابها ضبطاً محكماً، ومنهم الفلكي الشهير اللواء محمد مختار باشا مؤلف كتاب «التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية» وقد جاء فيه أن أول رمضان فرض فيه الصوم هو الذي وافق أول يوم فيه يوم الأحد ٢٦ شباط (فبراير) سنة ٦٢٣.

ولا يتهم اللواء محمد مختار باشا في حسابه، فقد جاء ما ذكره مطابقاً لما جاء في كتاب «التقويم العام لخمسة آلاف عام» تأليف ميخائيل دبانه الدمشقي نزيل بيروت، طبع مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٨٩٢م والمؤلف مسيحي، ومطبعة الهلال مملوكة لمسيحيين.

ورمضان الثاني وافق أوله يوم الجمعة ١٥ شباط

(فبراير) سنة ٦٢٤ م، وثالث رمضان في الإسلام وافق أوله يوم الثلاثاء ٤ شباط (فبراير) سنة ٦٢٥ م.

ولكنّ أولَ رمضانَ الواقعَ في السنة الأولى من الهجرة كان يوم الأربعاء ٩ آذار (مارس) سنة ٦٢٢ م ولم يكن الصوم قد فرض فيها. وإنما فرض في السنة الثانية من الهجرة بإجماع المسلمين دون خلاف.

ومع هذا لم يتفق شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة التي لم يفرض فيها صوم شهر رمضان مع دعوى الدكتور جاكوب الألماني.

وعلى هذا يكون كل ما بناه الدكتور جاكوب الألماني على اتفاق يوم أول رمضان صامه المسلمون مع أول يوم في صيام الثلاثين عند الصابئة قد تهدم من أساسه على رأس دعواه المفتراة، فالصوم قد فرض في السنة الثانية من الهجرة، وأول رمضان فيها لا يوافق حساب الدكتور جاكوب.

والإسلام لم يَدَّعِ أن الصوم قد فُرِضَ فيه ابتداء دون الديانات والأمم السابقة، بل قرر كتاب الله أن الصيام كان مفروضاً على من كانوا قبل المسلمين، وها هي ذي الآية التي فرض بها الله الصوم عليهم: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم

الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ تقرر أن الصيام فريضة عرفت قبل الإسلام على الأمم السابقة.

وهناك من ادعى أن نبي الإسلام محمداً صلى الله عليه وسلم قد «قلد» المسيحيين في الصوم الكبير، وهذا المدعى هو البارون فون كريمر[1] (١٨٢٨ - ١٨٨٩ م) مع أنه يعلم أن المسيح لم يحدد الصوم ولم يفرضه، وشاهدنا كتاب «يسوع المسيح» تأليف الأب بولس الياس اليسوعي الذي يقول فيه بصفحة ١٩٥:

«أشار المسيح أخيراً إلى واجب الصوم والصلاة، وعهد إلى الكنيسة العناية بتطبيق هذا الواجب وفقاً لأحوال المكان والزمان، وهكذا نرى صوم اللاتين يختلف عن صوم الشرقيين، وصوم الأصحاء والبالغين أصرم من صوم الشيوخ والصغار، قد راعت الكنيسة في تطبيق قانون الصوم السن والمهنة والمناخ والبلاد وما سوى ذلك من الاعتبارات، ولو كان المسيح حدد بذاته طريقة الصوم لكان أصبح هذا

---

(١) مستشرق نمساوي. ولد في فينا، وكان قنصل النمسا في مصر وبيروت، ونشر بعض الكتب الإسلامية، وألف كتاباً في «الحضارة الإسلامية» ترجمه إلى العربية من الألمانية مصطفى بدر.

الواجب حجر عثرة في سبيل المؤمنين، وكثير منهم لا يقوَوْن على النهوض به ».

ومؤلف كتاب « يسوع المسيح » الذي نقلنا منه الشاهد لنرد به على فون كريمر أراد أن يغمز الإسلام الذي فرض الصوم وحدد الزمن كما حدد المدة التي يصومها، وأوضح شروطه وواجباته وآدابه ومستحباته وما يكره فيه وما يحرم على الصائم والصائمة، ورخصة المريض والمسافر ومن لا يطيق والحائض والنفساء إلى غير ذلك من الأحكام.

وإن فرض الإسلام، الصوم على المسلمين جميعاً ذكوراً وإناثاً في كل أرض تقلهم وفي أي مكان أو زمان كانوا من مزايا هذا الدين العظيم الحق السمح الذي رضيه رب العباد للعباد كافة حتى يكون العالم منتظماً في وحدة شاملة إذا أراد أهله، أو يكون أتباعه وحدة واحدة في أداء هذه الفريضة، لأن الإسلام لم يجيء للتفرقة والشذوذ.

فكل مسلم من مئات الملايين يصوم الصيام نفسه الذي يصومه سواه لا فرق ولا تميـيز، كلهم سواء يفطرون مع غروب الشمس، ويمسكون جميعاً قبل شروقها، لا يشذ أحد، وكذلك الصلاة.

فالمسلم في مكة أو في أي مكان على ظهر هذه الأرض في

وسطها أو في جهة منها أو في أي قارة من قاراتها يجب أن يصلي الفجر في وقته، وكذلك الصوم ما دامت الشروط قد توافرت فيه.

وهذا الإحكام الشامل الذي ينتظم كل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ضمان لوحدة الفريضة والنظام، وطرد للشذوذ والفوضى.

وعندما فرض الإسلام الصوم لم يُغْفِل أمر البالغين وغير البالغين، والأصحاء وغيرهم، والأطفال والمرضعات والشيوخ والمرضى وكل ذوي الأعذار، إذ حسب لكل شيء حسابه الدقيق.

وتلك مزية من مزايا الإسلام في حكم الأنام وضبط الأحكام وتحقيق الوحدة والنظام.

الصوم ليس تعذيباً للصائم

إن من لا يعترفون بالديانات من شيوعيين وغيرهم وكثير من أعداء دين الإسلام يتهمون الديانات التي تفرض الصيام على أصحابها وبخاصة الإسلام أنها تذهب إلى تعذيب أتباعها بحرمانهم من الطعام والشراب، وهو تعذيب لا ضرورة له، وعقوبة لا يستوجبها الصائمون.

ولو خلت الديانات من فريضة الصيام لكانت المؤاخذة أشد؛ بل لكان الاتهام أفظع من الأول، انهم يتهمون الديانات التي فرضت الصيام بالوحشية والتعذيب، ولو خلت من الصيام لاتهموها بالنقص والفراغ من عبادة تعاب الديانة بعدم اشتمالها عليها.

وأما أن الصيام تعذيب وعقوبة فذلك ادعاء باطل ينفيه الواقع، فما القول في كثير من الرياضات البدنية ومن بعض الألعاب التي نجدها قاسية شديدة كالمصارعة والملاكمة والجري والسباق بأنواعه وتسلق الجبال، بل إن بعض

الأعمال الإنسانية كالطب والاسعاف لا تخلو من المخاطر والمشاق.

ولماذا لا يتهم هؤلاء بالوحشية؟ ولماذا تُتَّهم الديانات بالوحشية بسبب فرضها الصيام على أتباعها ولا تتهم الرياضة وبعض العلوم؟

وإذا تعرضت أمة لعدوان من عدو وبرزت للدفاع عن نفسها وخاضت غمار حرب ضروس قاسية وفتكت بآلاف الأعداء وضحت هي نفسها بآلاف القتلى وآلاف الجرحى.

أفَتتَّهم هذه الأمة بالوحشية؟ كلا، طبعاً، انها غير متهمة.

وليس الصيام بواصل هذا الحد من الشدة والتضحية، وليس فرضه من قبيل التوحش ولا بالشدة التي تعد من ضروب العقوبات.

ومعروف أن العقوبة تفرض على مستحقها انتقاماً منه على ذنب، وزجراً له، وردعاً لغيره، وما كان الصيام انتقاماً من الصائم ولا زجراً له، ولا ردعاً لغيره، وبهذا الرد تنتفي دعوى الانتقام والعقوبة.

وعندما يتدرب الملايين من الجنود حتى يكونوا أهلاً

لأن يكونوا حماة لأممهم وشعوبهم يتقلبون في تدريبات وتمرينات غاية في الخطر والبأس والشدة والتعب حتى ليصل بهم التدريب إلى حد المخاطرة بالنفس.

وما يُتَّهم الحكام والقادة بالوحشية والتعذيب، بل لا يُطِيفُ هذا الاتهام بالجنود الذين يتدربون وهم يشعرون براحة النفس، لأنهم يؤدون واجباً مقدساً للوطن العزيز.

أبعد هذا يكون الصيام الديني وحشية وتعذيباً؟ بل أيكون كذلك ويكون الصوم الطبي رحمة وشفاء للأسقام، وتصحيحاً للأجسام؟!

إن ملايين المرضى في هذا العالم يفرِضُ عليهم الأطباء أن يصوموا عن الطعام والشراب. ومنهم ملايين يُفْرَض عليهم أن يصوموا عن كل طعام وكل شراب ليلة كاملة استعداداً للفحص الطبي.

أليس هذا الصيام الطبي المفروض رحمةً وأخذاً بأسباب العلاج والاستشفاء رغبة في الحصول على الصحة؟

بلى، باعتراف المرضى الصائمين طبياً.

فلماذا لا يُنْظَرُ إلى الصيام الديني هذه النظرة الطبية من قبل أولئك الذين يلقون التهم جزافاً وعداء إذا كانوا

من الكافرين بالأديان؟

إن الديانات السماوية فرضت الصيام امتحاناً للطاعة وتدريباً عليها وعلى التحكم في الإرادة والسيطرة على شهوات النفس وتوجيهها الوجهة السامية الصالحة.

فإذا فات أولئك الناسَ التفطُّنُ للحِكَم الروحية والدواعي المعنوية فقد كان حرياً بهم أن يفطنوا لدواعي الصحة أو الرشاقة والجمال.

وإذا كان للصوم في كل الديانات أسبابه ودواعيه فإن الصوم في الإسلام قد ذهب بكل المزايا والمكرمات.

فهو - بلا شك - امتحان للمسلم أيطيع ربه فيما أمر في فرض لا تطلع على أدائه إياه عين بشر، إذ يستطيع أن يتظاهر بالصوم وهو مفطر دون أن يكشف رياءه أحد.

ومع ذلك يصوم لله طائعاً، ولهذا جاء في الحديث الشريف أن الله تبارك وتعالى قال: « الصوم لي، وأنا أجزي به ».

وصوم الإسلام يتفق له بعد الطاعة والامتثال لما أمر الله كل مزايا الطب ومنها مزايا بدنية لم يستوفَ كشفها بعدُ.

وأي طاعة أصدق من أن يدع الصائم - ذكراً

وأنثى - طعامه وشرابه وشهوته، ويمسك كل جوارحه لكي لا تنطلق إلى ما مُنِعَتْ عنه، ويقوم هو نفسه بإيثاق حريته وتكبيل إرادته.

ويرجح الصوم الإسلامي على كل ضروب الصوم المعروفة لدى الأمم سواءً أكانت في دياناتها أم في أنواع الحمية الطبية، ولا يقف الرجحان في حدود ضيقة على الصائم وحده بل نشهده في المجتمع كله.

من أعظم المزايا التي يَتَفَرَّد بها الصوم الإسلامي أنه يتم في شهر قمري، ولذلك يصوم المسلم في كل الأجواء، يصوم في الشتاء وفي الصيف وفي الربيع وفي الخريف، ويتفق المسلمون في العالم كله في صوم شهر واحد.

وفي هذا الصوم إظهار لوحدتهم، وتأكيد للطاعة التي تبدو آثارها من السرائر والضمائر إلى عالم المشاهدة والظاهر.

وهذا ما نفتقده في فريضة الصيام في جميع الملل والنحل، فعلى سبيل المثال لا نرى أي تغيير في المجتمع اليهودي وفي المجتمع المسيحي إذا صام اليهود وصام النصارى.

أما إذا صام المسلمون فيتغير ظاهر المجتمع المسلم

وباطنه، يتغير بيت المسلم في شهر الصوم نظاماً وآداباً وسلوكاً وعادة في الأكل والشرب وفي النوم واليقظة، بل في العبادات أيضاً، فتُصَلَّى التراويح، ولا تراويح في غير رمضان.

وفي المجتمع المسلم يظهر الفارق بين شهر الصوم وشهور غيره، ويتفق في إدراكه المسلمون وغير المسلمين على السواء، فلا مقاهي ولا مطاعم من الفجر إلى المغرب، إلا قبيل المغرب حيث تستعد المطاعم للصائمين.

وتتزين المساجد بالأنوار، بل تتزين الشوارع والأسواق، وتزدحم المساجد بالليل الذي يحيونه بالعبادة.

وأثر رمضان يبدأ من داخل النفس حتى يعم خارجها. ويتناول كل شيء يحيط بالمسلم، وذلك أثر لا وجود له في صوم غير المسلمين، وذلك من بعض مكارم الصوم في الإسلام.

من حِكَم الصوم

ما أكثر ما تحدث الناس في حكم الصوم، وأفاض العلماء القول فيها، ويتكرر ما قيل قبيل دخول شهر رمضان يستقبلونه بالتحية والحفاوة اللتين تمتدان بامتداده فتُحَبَّر المقالات في الصحف، وتذاع الأحاديث، وقد تصدر مؤلفات في الصوم وأحكامه وفلسفته وحكمه.

ويشترك كل المسلمين في الحفاوة بشهر الصوم. ونرى من آثارها الظاهرة كثرة الأنوار وإحياء الليل، وازدحام المساجد والأسواق، وكثرة الطعام والشراب، حتى لتضيق الموائد بها، وكأن شهر رمضان فرصة لهذه الكثرة التي لا تقتصر على الأغنياء وحدهم، بل يشاركهم فيها ذوو الدخل القليل.

كان شهر رمضان في الإسلام فرصة للإكثار من الأعمال التي تقرب من الله جل جلاله، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهيىء نفسه من شعبان حتى يتفرغ لرمضان.

بمضاعفة الجهد في العبادة التي لا تقتصر على الصلاة والدعاء والعمرة، بل كان رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في شهر رمضان أجود الناس، وشبه جوده فيه بالريح المرسلة.

مع هذا الكرم المحمدي الذي لا يشبهه كرم أحد من الخلق، لأنه كما وصفه الواصفون: يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ما كان الأكل هِجِّيراه، وإن لم يمنع نفسه وأمته من الأطايب على أن يقترن بالحمد والشكران.

كان يواصل الصوم يوماً أو يومين لا يفطر خلالها، واقتدى به صحابته وأرادوا أن يواصلوا فمنعهم الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة لهم.

قال الإمام البخاري في صحيحه[1] في باب الوصال: «نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه رحمة لهم وإبقاء عليهم وما يكره من التعمق» وذكر أحاديث منها عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه

---

(١) طبعة بولاق ٣ : ٣٧ .

وسلم عن الوصال، قالوا: إنك تواصل، قال: «لست مثلكم، إني أُطْعَمُ وأُسْقَى».

وتختلف مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام عن موائدنا الحافلة بصنوف المطعوم والمشروب الفاخرين الغاليين، كانت موائدهم مما تفضله موائد فقراء المسلمين في أيامنا، ومع قلة طعامهم كانوا يواصلون اليوم واليومين لا يطعمون حتى زجرهم الرسول الرؤوف الرحيم رحمه لهم، لأنه يريد لهم اليسر والرحمة.

من حكم الصوم ألا نسرف في الطعام والشراب هذا الإسراف، لا كله ولا بعضه، بل إن الخُمْس مما تحفل به مائدة رمضان كثير، لأن الصوم والإسراف غير متفقين، الصوم: إمساك تام عن الطعام والشراب وعن المباشرة، فإذا زال وقت الحظر وجب الاقتصاد أسوة برسول الله صلى الله عليه.

ويقول الإمام الغَزَّالي في الإحياء(٢): «روح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى

---

(٢) كتابه «إحياء علوم الدين» طبعة دار المعرفة ببيروت، ج ١ ص ٢٣٥.

الشرور، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم، فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلاً فلم ينتفع بصومه».

ويقول الإمام ابن القيم في «زاد المعاد في هَدْي خير العباد»[٣]: «لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوّتها الشهوانية، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين».

ثم يقول: «ولما كان فَطْم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة لما توطّنت النفوس على التوحيد والصلاة، وأَلِفَتْ أوامر القرآن، فنقلت إليه بالتدريج».

ثم يذكر أنه كان يكثر من العبادات، والصدقة والإحسان، وتلاوة القرآن، والصلاة، والذكر، والاعتكاف.

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعد

---

(٣) طبع المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة؛ جزء ١ ص ١٥٣.

لرمضان - كما نستعد نحن أبناء هذه العصور المتأخرة - بالطعام والشراب والملبس، وإنما كان كل استعداده تهيئة نفسه ليعمل ما في قدرته ليتقرب إلى الله بما صلح من القول والعمل والشعور والتفكير.

ولعل من أهم أسرار الصوم وحكمه امتحان الله لعباده المؤمنين بفرض صيام شهر رمضان، يمتحنهم أيمتثلون ويطيعون؟ إن أحدنا يستطيع أن يتظاهر بالصوم وهو مفطر، ويخدع الناس، ولكنه لن يستطيع أن يخفي عن الله ما أخفاه عن الناس، ولهذا آثر الله نفسه بجزاء الصائمين.

وإذا كان الصوم امتحاناً للمسلم في معتقده فهو امتحان لقدرته وإرادته وصدق إيمانه ومدى صبره.

إن الصوم كبَّل حرية الصائم وإرادته، لقد كان حراً يأكل متى أراد، ويشرب متى أراد، ويأتي شهوته متى أراد، وإذا رمضان يُهِلُّ عليه فيكبل هو نفسه حريته وإرادته، فإذا هو راض بما فرض الله، طائع لما أمر، لا يستكبر على الفريضة، ولا يعصى الأمر، بل كلما نازعته نفسه إلى شيء مما مُنعَ عنه ذكر الله فأصر على الصبر والامتناع ولو كان فيهما الجَهْد والألم.

والحياة لا تستقيم أمورها مع أحد، فهي زاخرة بما يُجْهِد

ويؤذي، وتعويد النفس الحرمان والمشقة من ضرورات بناء الشخصية ومن أهم وسائل تربيتها وتزكيتها.

وإن من أعظم ما يثبت إنسانية الإنسان الحرية التي منحه الله اياها، وجعلها حقاً من حقوقه، ولا يرضى أن «يصادرها» منه أحد مهما كان، وقد يؤثر الموت على «المصادرة» لأن مذاق الحياة يكون مقيتاً مراً إذا افتقدت الحرية.

والصوم تكبيل للحرية فيما هو من الضرورات التي لا يمكن الصبر عنها، وما في الوجود أشد ضرورة من الطعام والشراب، ومع ذلك نجد المسلم الحق يرضى بأن يقوم هو نفسه بتكبيل حريته وإرادته عن الشيء الذي تقوم عليه حياته بطوعه واختياره فيمتنع عن الماء ونار الظمأ تحرقه فلا يطفئها به إطاعة لأمر الله وأداء لما فرض.

وعلم الله جل جلاله عِظَمَ هذا الامتحان فجعل المثوبة عليه بيده يبسطها على الصائم فيفيض عليه أعظم ما يتمناه: رضوان الله وفردوسه الأعلى

أمن حِكَم الصوم الجوع؟

منذ نصف قرن وأنا أقرأ في الكتب والصحف ما يكتب الكاتبون من العلماء والأدباء والمفكرين في حِكَم الصوم كما أسمعها من خطباء الجمعة في مساجد بلادنا وأقطار العروبة والإسلام، وجاءت الإذاعة والتلفزيون يشاركان في بيان حكم الصوم.

وكلهم يجعلون شعور الغني بالجوع من أعظم الحكم والأسرار في فريضة الصوم حيث يقررون أن الله فرض الصوم حتى يشعر الأغنياء بلذع الجوع فيعطفون على الفقراء الجائعين ويحسنون إليهم بما يخفف عنهم الجوع أو يزيلونه عنهم على الأقل في شهر الصوم وأيام الأعياد.

وأنا لا أشارك من يرون هذا الرأي، إذ لو صح ما ذهبوا إليه فلماذا يكون الصوم مفروضاً على الفقراء الجائعين؟ ولماذا نزيدهم بالصوم جوعاً على جوعهم؟!

ولو صح ما ذهبوا إليه لكان حرياً أن يفرض الصوم

على الأغنياء وحدهم دون الفقراء حتى يشعر أولئك بالجوع، وبذلك يشاركون الفقراء فيه.

وهل الأغنياء لا يشعرون بالجوع إلا في أيام الصوم؟ لا، إنهم يشعرون في غيرها بالجوع أيضاً، إنهم يجوعون في شهر رمضان ويجوعون في غيره، ولو كان شعورهم هذا يدفعهم إلى الإحسان إلى الفقراء لرأيناهم في سعة وشبع في هذا الشهر المبارك على الأقل، ولكن ما أكثر الجياع في شهر الصوم الكريم!

إن الله فرض الزكاة على الأغنياء، وندر من يخرجها. أما في العالم العربي والإسلامي فلا يخرجونها. وقد قال غني من أصحاب عشرات الملايين في بلد عربي، قال لي: ما كنا نزكي حتى أَخَذَتْ أموالنا تزداد، وتغير نظام الحكم؛ فإذا هو «يصادر» أموالنا، ويؤمم مصانعنا وممتلكاتنا حتى جاء علي رمضان وما نملك قيمة صحن فول! لقد كنزنا الأموال حتى جاء نظام الحكم الشرير ولم يبق لنا مالاً، لم يعد لنا نصاب زكاة! وهذه عقوبتنا العاجلة!.

ومع هذا لم يتعظ الأغنياء ممن أمهلهم الله، وما زالوا على عهد الناس بهم في الكزازة والعصيان لا يخرجون الزكاة.

وفي غير المملكة العربية السعودية قل إخراج زكاة الفطر، فجوع الأغنياء لم يحملهم على العطف على الفقراء في شهر القرآن والخير والبركات: شهر رمضان المبارك.

كل أغنياء العرب والمسلمين إلا النادر قابضو الأيدي عن الإحسان إلى الفقراء والبرِّ بهم، ولو صح ما رأى الراءون من حكمة الصوم أن يشعر الغني بلذع الجوع فيعطف على الفقير ويساعده لما رأينا في أقطار العرب والمسلمين عشرات الملايين من الجياع، وملايين الأطفال والشيوخ والعجزة يموتون جوعاً كل عام، ولا يحملنا ذلك على أن نعطيهم من فائض ما لدينا من طعام، بل نلقيه في القمامة ونحرم أولئك المحتاجين، كأن بينهم وبيننا عداء وثأراً، ولو أعطيناهم ذلك لشبعوا.

وكان حرياً بالأغنياء أن يكون لهم برسول الله أسوة حسنة في شهر الخير الذي تتضاعف فيه الحسنات، كان حرياً بهم أن يكونوا أسخياء، إذا أرادوا رضا الله، ورغبوا في مثوبته.

في صحيح الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير. وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل،

وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ يعرضُ عليه النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، فإذا لقيـه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة ».

ولو صام المسلمون حق الصيام لكانت حالهم خير حال، ولكنهم غيرَّوا فغيَّر الله ما بهم، فلم تنههم الصلاة: صلاتهم عن الفحشاء والمنكر. ولم يحملهم رمضان شهر القرآن على البذل والسخاء فكان ما نرى من تأخر المسلمين وضعفهم وفقدانهم العزة والقوة.

ولكن هذا التأخر ليس ضربة لازب عليهم، بل هم يملكون أن يغيروا ما يريدون تغيـيره، يقول الله عز وجل: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾.

فالمسلمون رُهُنُ إرادتهم التي تحكم لهم أو عليهم، فهم يقررون مصيرهم بأنفسهم، وشهر رمضان الذي كان ينتظر الرسول صلى الله عليه وسلم مقدمه السعيد بشوق ويتهيأ له نفسياً ويهيىء أهله وأمته ليغنموا المزيد من كرم الله ويكونوا هم أنفسهم أجود الناس كما كان الرسول أجود الناس طرا.

وليس من الإسلام أن يأتي هذا الشهر الكريم على المسلمين ولا يعمل أغنياؤهم على تغيير حال إخوانهم الفقراء إلى السعة والرخاء، فيسلموا من حرب الطبقات، ويطهروا المجتمع من آفات الحقد والكراهية والبغضاء التي اجتاحت كل المجتمعات في الأرض بسبب جفاف القلوب وجدبها.

ومجتمعات المسلمين أكثر تعرضاً للتهديد من أعدائهم على الدوام، وإنهم لن يستطيعوا أن يواجهوا تحديات أعدائهم إلا بهذا القرآن يجعلونه هاديهم وإمامهم وقائدهم، ويعاهدونه ويتعهدونه في شهره المبارك بما كان يتعهده رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم من البذل السخي في كل سبل الخير التي منها بذل الخير نفسه حتى صار أجود الناس بالخير من الريح المرسلة.

وعندما يشعر الأغنياء من أهل مجتمع المسلمين بما يجب عليهم نحو من يعايشونهم من عطاء الخير ويكونوا في شهر الخير أخياراً وفي شهر الجود أجواد فحينئذ يستطيع مجتمعهم أن يقف في وجه تحدي أعدائه صفاً واحداً، وفي ذلك يذهب ذوو الغنى بالنفع الأعظم ديناً ودنيا، يذهبون بحب مجتمعهم المقرون برضا الله جل جلاله، ويصح فيهم حينئذ قول سيدنا سيد الخلق محمد صلى الله عليهم وسلم:

«ذهب أهل الدثور بالأجور» وأهل الدثور هم الأغنياء أصحاب الأموال.

فهل ينتهزون هذا الشهر الكريم فيذهبون بالأجور فيربحون الدنيا والآخرة؟!

نرجو أن يوفقهم الله لذلك.

ليس مثلَ الإسلام دينٌ في وجود الإنسان كله

كل ما في الإسلام سواء أكان عقيدة أم شريعة أم آداباً وسلوكاً وأخلاقاً أم علوماً وحِكماً وأحكاماً ونظاماً أم هدى ورشاداً فريد لا وجود لمثله في كل الديانات سواء أكانت صحيحة أم غير صحيحة.

فكل ديانات السماء التي سبقت الإسلام مبنية على التوحيد الخالص. مثلها مثل الإسلام، إلا أن ما يختلف الإسلام عنها هو إدراك أهله لأسرار الخلق ولشيء كثير من أسرار التوحيد نفسه وأسرار عظمة الله جل جلاله.

فأمم الرسل السابقين ممن آمنوا بهم يعرفون أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وليس ثمت ما هو أعظم من الشمس حتى أن إبراهيم عليه وعلى نبينا وكل الرسل صلاة الله وسلامه كان يعتقد مثل غيره أن الشمس أكبر ولهذا

حكى الله على لسانه في كتابه العزيز: ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾.

وفي العربية لم يثنوا الشمس لأن الناس كانوا يعتقدون أنها واحدة، وما ثم شمس أخرى، ولهذا لم يثنوا ولم يجمعوا، ومضت القرون منذ عهد نوح إلى قريب حتى ظهر لأمة محمد أن هناك ملايين الشموس والأقمار، ومن الشموس ما هو أكبر من هذه الشمس كثيراً حتى تتضاءل عند تلك الشموس.

وصار العقل بعد الإسلام يدرك من عظمة الله ما لم يدركه أبناء الديانات السابقة، وما كانوا ليتصوروا سعة علم الله وعِظَمَه كما نتصور نحن أبناء الإسلام الذي أُثِرَ عن نبيه قوله الذي معناه إن علم كل البشر بالنسبة إلى علم الله مثل ما يأخذ رأس الإبرة من البحر.

وعلماء الإسلام ومن جاءوا بعده حتى من غير المسلمين الآن يقررون أن العالم العبقري أكثر الناس ادراكاً لقلة علمه، بل هو يقرر أنه إذا اكتشف مجهولاً من العلم ظهر له فيما كشفه نفْسِهِ أن هناك من المجهول مما وراء هذا المعلوم ما لا يحصى.

ومع أن التوحيد في كل ديانات السماء والإسلام واحد

في أصوله إلا أن تصوره زاد اتساعاً وبعداً كما زاد براهينَ، لأن تفتح العقل وتقدم العلم على مر الأيام أتاحا ذلك التصور المنبثق عن العلم.

أما فارق الشريعة بين الإسلام وما سبقه من ديانات فكبير وكثير، فتلك شرائع صغيرة محدودة ضيقة على قدر حجم أهلها وضآلة عددهم وضيق رقعة أرضهم ومعاملاتهم.

ولما اتسعت مدارك الأمم وكثرت المطالب والحاجات في هذا العصر وكثرت أمم الحضارات اتخذت كل أمة لنفسها شرائع وقوانين تحرس بها مجتمعاتها فإذا هي شرائع أرضية لا تتطلع إلى السماء، ومجردة تجرداً تاماً عن الأشواق الإنسانية العليا.

انقسم العالم إلى ثلاثة أنظمة: النظام الغربي، والنظام الشيوعي، والنظام الإسلامي المحصور بين النظامين العُتُلَّيْنِ، حتى صار نظام الإسلام غير محكوم به وغير مطبق إلا في رقعة ضيقة من الأرض وفي قلة من الناس.

أما النظام الرأسمالي فمنتشر ويُعَدُّ أتباعه بمئات الملايين، وكذلك النظام الشيوعي، وأكثر أقطار المسلمين يطبِّق نظام الغرب الرأسمالي، وبعضها آخذ بالنظام الشيوعي.

ولكي نعرض بعض ألوان من الفارق بين الأنظمة الثلاثة نأخذ القطر الذي يُحَكِّم الإسلام وحده في كل أمر من أموره، والدولة التي تمثل النظام الرأسمالي وهي أكبر دوله، والدولة الكبرى التي تمثل النظام الشيوعي.

فالدولة التي تحكم الإسلام شريعة وعقيدة وآداباً وعلوماً وفنوناً وسلوكاً واجتماعاً واقتصاداً وتجارة هي البلاد العربية السعودية.

ومجتمع هذه البلاد يكاد يكون أطهر مجتمعات الأرض طرًّا، بل هو أطهرها على الإطلاق والتعميم، فليس في هذا المجتمع كثير من ضروب الموبقات المتراكمة «المتكدسة» في كل مجتمعات هذا العصر والعياذ بالله.

إن العالم كله يعترف بأن الأمن الذي يتمتع به كل من في الأرض السعودية سواء أكانوا أبناءها أم وافدين إليها لا مثيل له في كل العالم، فرؤساء الدول جميعاً لا يشعرون بالأمن، بل المخافة الدائمة كامنة في نفوسهم.

والفاحشة منتشرة انتشار الهواء في مجتمعاتهم، ولما كانوا راغبين فيها حكاماً ومحكومين وضعوا شرائع شيطانية تنجيهم من العقوبة، بل ترى هذه الشرائع في الفواحش ما ظهر منها وما بطن أمراً طبيعياً لا نكران فيه، بل جعلوا

الفاحشة الأثيمة أمراً محبباً، بل انتهى الأمر في النظام الرأسمالي إلى أن أحل القانون والكنيسة أبشع ضروب الفاحشة.

وفي إحصاء الغرب في أمريكا وفي الاتحاد السوفييتي بلغ شيوع خيانة كل من الزوجة والزوج نسبة مرتفعة، بلغت نسبة الخيانة ٨٥٪ من كل زواج.

في كل مئة زوج يخون خمسة وثمانون منهم زوجاتهم، وفي كل مئة زوجة تخون خمس وثمانون أزواجهن، ويعلم كل منهم بخيانة الآخر.

ومع وجود موانع الحمل يولد على فراش العَهَر في أمريكا أكثر من مليون طفل، ومثل هذا العدد في الاتحاد السوفييتي مضاعفاً.

وعشرات الملايين من المراهقات يحملن ويلدن في ظل النظامين، بل تصل البشاعة والقذارة إلى ممارسة الفاحشة من قبل المحارم بعضهم مع بعض عن رضا وطواعية، وما ثم ما يخجل في هذه البيئات الغارقة في القذر الخبيث.

إن الفارق بين مجتمع الإسلام ومجتمعات غير الإسلام كبير، لأن مجتمع الإسلام يظله القرآن الكريم الذي يدعو

إلى التي هي أقوم، ويضمن لأتباعه كل ما هو أفضل وأجمل وأكرم وأكمل.

والحمد لله حمداً كثيراً على نعمة الإسلام مبتهلين إليه أن يجعلنا مسلمين حقاً. وأن يوفقنا لما يحب ويرضى، ويجنبنا كل ما يسخطه، ويهدينا إلى طريق الرشد والتقوى.

الإسلام دين السهولة واليسر

كل الديانات الصحيحة وغير الصحيحة تحوي العبادات كالصلاة والصوم، وغيرهما، وفيها من الأوامر والنواهي ما يرهق، وفي بعض العبادات ما يكاد يصل إلى تعذيب من يؤديها كما وجدنا في بعض الديانات حتى يومنا هذا في الهند وفي إفريقيا وغيرهما من العذاب ما لا يطاق احتماله.

وأقسى صيام ديني صيام معتنقي الديانة الجينية إحدى ديانات الهند القديمة التي ما يزال لها أتباع إلى أيامنا هذه، ويبلغ عددهم حوالى المليونين.

وهذه الديانة الجينية ديانة ملحدة، إنها لاهوت بدون إلـه، وليس في الجينيـة إلّه، ولهذا كانت من ديانات التعطيل.

وتنسب إلى «جينا» بمعنى القهار في لغة الهند القديمة، وسمي مؤسس هـذه الديانـة «جينـا» لأنه قهر نفسه

ونوازعها وشهواتها، وعاش ما قبل الميلاد بحوالى ستمئة سنة، عاش مترفاً منعَّماً بثراء أبيه، حتى فجع فيه وفي أمه فجيعة لم يحتملها، فقد صمما العزم على أن يصوما حتى الموت. نعم آثرا الانتحار بالصوم عن كل طعام وشراب، فقد كانا يتبعان عقيدة تفرض الموت عن طريق الصوم حتى الموت.

ويعد هذا الصوم إلى الموت نعمة لا تعدلها الحياة نفسها، لأنها لعنة في هذه العقيدة الشاذة.

ونقم الابن على المال والثراء والمجد والنعيم عندما رأى نهاية والديه الأليمة، فتنكر للحياة أشد التنكر وارتدى القَشَف والجوع والحرمان. وصام عن الطعام أكثر أيامه متجولاً في أرض البنغال صائماً ثلاث عشرة سنة عن شهوات النفس ونوازعها ومطالبها. وأمسك عن الطعام والشراب قانعاً منهما باليسير التافه هذه المدة الطويلة.

ويصوم الجيني عن كل لذة ومتعة، ويجب ألا يزعجه ألم الجوع والعطش والحر والبرد، وألا يتأفف من لدغ العقارب والحشرات والحيات، وإذا قرر التخلص من الحياة نوى الصوم فيمسك عن كل طعام وشراب حتى يلفظ أنفاسه.

وفي صيام اليهود شيء من تعذيب النفس كما نجد في

عباداتهم الأخرى ما لا ترتضيه النفس السوية.

والفرائض الإسلامية التي منها الصوم والصلاة والزكاة والحج ليس في شيء منها تعذيب للنفس والجسد، فالصلاة خمس مرات لا تكلف المسلم ما لا يطيق، فالوضوء والسجود والركوع وقراءة آيات من القرآن سهلة، وإذا عسر على المسلم الوضوء لعذر فلديه البديل وهو التيمم. وإذا لم يستطع أن يصلي قائماً صلى جالساً، وإذا تعسر عليه الجلوس صلى بحسب قدرته.

والحج: قصد بيت الله الحرام، وهو فرض لمرة في العمر، ويجب أن تتوافر فيه الاستطاعة التي تقوم على القدرة البدنية والقدرة المالية، فإذا فقد شيئاً من هاتين القدرتين أو كان الطريق مخوفاً غير آمن سقط الفرض، وصار بذلك الحج سهلاً إذا توافرت شروط أدائه.

والزكاة لا عسر فيها، فإخراج المسلم نصاب الزكاة لا يثقل عليه، وما فيه تبديد لماله، فالنصاب يسير جدُّ يسير، ولا تقتصر حكمته على تطهير المال وحسب، بل يضمن للغني حب الفقراء وإخلاصهم في الولاء له، والتعامل معه.

وأما الصوم الذي زعم بعض خصوم الإسلام وفيهم بعض المسلمين الذين ضعف إيمانهم أن فيه عسراً على

الإنسان وتعذيباً له وتقليلاً من انتاج العمال إنما هو اتهام يبطله واقع المسلم الحق، فبالنسبة لفرية قلة الإنتاج نذكر أن أحد المصانع الألمانية الذي يضم آلاف العمال المسلمين. وأراد المصنع مجاملتهم فقرر في شهر الصوم تيسيره عليهم بتخفيض ساعات العمل إلى غير ذلك من أمور التيسير، فشكروا وقرروا أن يعملوا في شهر الصوم مثلما كانوا يعملون في شهور الإفطار..

وكانت المفاجأة للمصنع مذهلة، فقد ظهر أن إنتاج الصائمين قد ازداد، وأن حالة العمال الصحية والنفسية كانت خيراً منها في غير شهر الصوم كما أثبتت «التقارير» الطبية.

وكان أكثر هؤلاء من مسلمي تركيا كما كان معهم مسلمون أوربيون من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا ومن بعض الدول التي سيطرت عليها الشيوعية كبولندا.

ولو كان الصوم إرهاقاً وتعذيباً لما استطاع العمال أن ينتجوا أكثر مما كانوا ينتجون في شهور الإفطار، وما ثم من يجبرهم على إكثار الإنتاج، ولم يرهقوا أنفسهم، بل كانوا طبيعيين يعملون كعادتهم في العمل والإنتاج اللذين اقترنت بهما صحة النفس والجسد.

وكذلك كان الأمر في المصانع الأخرى في ألمانيا وغيرها من الأقطار مما أثبت أن الصوم الإسلامي متفق مع طبيعة الإنسان حيث لا رهق فيه ولا عذاب.

ولقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ ولو كان في الصوم تكليف ما لا يطاق لما أوجبه الله على عباده.

وإن فرضه دليل القدرة عليه، وإثبات دليل القدرة أن الأطفال يطيقون بشيء من المشقة، بل ما منا إلا وقد صام وهو طفل صغير، صام ثلث النهار أو نصفه حتى تدرج إلى صيام النهار كله في مرحلة الطفولة.

وليس من التكليف غير المطاق الصوم، بل هو من التكليف الذي في وسع البالغين، لأن الأطفال قد أطاقوه.

ووجود المشقة في العبادات أو في بعض ما فرض الله لا يحمل معنى عدم الإطاقة. بل المشقة مما تمتحن به القدرة، لأنه من قبيل أعمال التدريب على احتمال المكاره. لأن الحياة ليست قائمة على السهل وحده. ولو قامت عليه وحده لما كانت الحياة حياة يرضى بها الحي.

لو كان كل ما يخطر ببالك متحققاً بمجرد خطوره

لكرهت الحياة، بل لا بد لتكون الحياة حلوة مطلوبة أن تكون المشقة جسراً إلى ما تريد.

ودعوانا أن الإسلام سهل سمح يسير لا يناقضه وجود المشقة في فرائضه وعباداته. بل اللذة التي نجدها إنما هي ثمرة الجهد المبذول والمشقة المُتَحَمَّلة.

وعندما يجد المسلم عسراً عسيراً ومشقة غير مطاقة في فريضة فله أن يختار ما ييسر الأداء. فإن تعذر الأداء سقط إلى أجل وإلا سقط ما دام التعذر قائماً.

فالصوم فرض يجب أن يتم في وقته ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعده من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾.

فذو العذر من حقه تأجيل الصوم عن وقته المقرر إلى وقت آخر، فإن كانت الإطاقة انتهت إلى المشقة الجاهدة غير المُحْتَملة فيفتدي بإطعام مسكين.

وما أظن شريعة تعطي متبيعها هذا القدر من اليسر والسهولة مثل شرع الإسلام: شرع الله الرحيم الرحمان.

حتى إطعام المسكين يقوم على اليسر، لا يرهق إخراجه، فإذا لم تكن لديه هذه الفدية سقطت، فإذا تبرع له موسر بها وكان هو أحوجَ إليها فله أن يستبقيها لنفسه.

فأي يسر أعظم من هذا اليسر: يسر الإسلام.

لماذا كان الإسلام دين السهولة واليسر؟

كل ديانات السماء كاملة من ناحية العقيدة لا مجال فيها لأن يضيف إليها البشر جديداً، أو يضيفوا إليها ما يلحقونه بها، أما الشريعة فتامة، ولكنها تتحمَّل الإضافة وتقبلها، واحتمالها هذه الإضافة برهان التمام.

ولكن كل دين غير صالح بشريعته لغير من نزل إليهم من الأمم، فدين نوح لا يصلح لقوم إبراهيم، ودين إبراهيم لا يصلح لغير قومه، لأن كل دين يختاره الله لقوم إنما يختاره لهم بحسب مواهبهم وقدراتهم واستعدادهم الفطري والمكسوب.

أصول الديانات من ناحية العقيدة والإيمان واحدة، فوحدانية الله سبحانه وتعالى أساس كل الديانات، والإيمان بالله وبكتبه وبملائكته ورسله وبالبعث والقيامة والجنة والنار وبالقضاء خيره وشره أصل في كل ديانات السماء.

وكذلك الأمر بالنسبة للإسلام، فهو مثلها في العقيده

والإيمان. ولكنه يفترق عنها في الشريعة التي ينزلها بحسب كل أمة من الأمم، فشرع من قبلنا ليس شرعاً لنا، فإن اتفق الإسلام مع دين سبقه في بعض أموره فليس معنى ذلك أن ما كان شرعاً للسابقين صار شرعاً لنا، بل شُرع في ديننا، ونحن أخذناه منه وليس من الدين السابق، وليس بمحظور في الإسلام أن تتفق بعض أحكامه مع أحكام من سبقوا.

ولما ختم الله كل ديانات السماء بالإسلام جعله ديناً سمحاً سهلاً يُطيق احتمالَ فرائضه وتكاليفه كلُّ بني البشر على اختلاف الأوطان واللغات والأجناس وأنصبتهم من تفتح العقل وتقدم العلم، ونصيب كل إنسان من الصحة والمرض كالصلاة يؤديها المسلم في الليل والنهار، ويستطيع أن يحفظ آيات من القرآن مع الفاتحة مما تفرضه عليه الصلاة، ولا يُعجِز شيء من أركان الصلاة وشروطها وواجباتها وسننها وكل أحكامها، فالوضوء - مثلاً - لا يعجز تعلُّمه أحداً، ويطيقه الإنسان في جميع الظروف، فإذا جاء ظرف فوق إرادته كأنِ كان البرد شديداً وصار في الوضوء أذى على صحته فلديه البديل ألا وهو التيمم السهل اليسير.

وإذا كان المسلم مريضاً مرضاً يمنعه من القيام صلى قاعداً، وإذا كان الركوع والسجود يؤذيانه تركهما ولا

تثريب عليه، واستبدل بها الإشارة بيده أو بعينه، أو اختار الوضع الذي يريحه ولا يؤذيه.

والصوم فرض كالصلاة لا يسقط عن مسلم؛ فإذا لم يكن في وسعه الصيام تركه دون إثم عليه.

لماذا؟ لأن الإسلام خاتم الأديان وللبشر كافة. ولا يمكن أن يكون معه دين آخر حق، ولهذا وجب في الدين الذي جعله الله للبشر كافة وجعله وحده دون أن يصحبه أو يَشْركه دين آخر أن يحوي اليسر كله، وجاء فيه من اليسر قول الله تبارك وتعالى: ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ .

وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة إلى يسر هذا الدين، وأن نوغل فيه برفق، وألا يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، وما خيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

وليس معنى اليسر خلو التكاليف والعبادات من الجهد وشيء من المعاناة، فالصوم سهل ويسير، ولكن فيه معاناةً وجَهْداً.

وعندما يخرج الصوم من اليسر والسهولة إلى التكلف والإجهاد يمنعه الإسلام ولا يرضى به.

في صحيح الإمام البخاري: عن عبد الله بن عمرو قال: أُخْبِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أقول: والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشتُ، فقلتُ له: قد قلته بأبي أنت وأمي، قال: « فإنك لا تستطيع ذلك فصم وأفطر وقم ونم وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر » قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: « فصم يوماً وأفطر يومين » قلت: « إني أطيق أفضل من ذلك، قال: « فصم يوماً وأفطر يوماً فذلك صيام داود عليه السلام، وهو أفضل الصيام » فقلت: إني أطيق أفضل من ذلك! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « لا أفضل من ذلك ».

ففي صوم سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص إجهاد للنفس وتكليف عليها فمنعه النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوبه الحكيم، وتكرر منه المنع، حتى إذا انتهى صلى الله عليه وسلم من السعة إلى الضيق الذي كتبه ابن عَمْروٍ على نفسه قرر له لا فضيلة في الضيق ونفى له ذلك في كلمته الموجزة البليغة: « لا أفضل من ذلك ».

وكان سيدنا عبد الله بن عمروٍ شاباً جلداً قوياً يستطيع أن يحتمل المشقة والعسر، ولم يحسب حساب الضعف والمرض والشيخوخة كما لم يحسب حساب السهولة واليسر في

دين الله، وظن في نفسه دوام قدرتها على مواصلة الصيام رجاء المثوبة، ولم يرض من داخل نفسه فأخذ يحاور رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له: إني أطيق أفضل من ذلك كلما ذكر له رسول الله الأفضل.

واستبدل ابن عمرو برخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم العزيمة التي أوجبها على نفسه، فلما كبر ندم، ففي صحيح البخاري في حديث ابن عمرو نفسه: « فكان عبد الله يقول بعدما كَبِرَ: يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم ».

فالإسلام في عقيدته وشريعته وآدابه وسلوكه وفي كل أمور الحياة دين السماحة واليسر والسهولة، ولم يختر لأتباعه إلا ما كان سهلاً، لأنه دين الضعفاء قبل أن يكون دين الأقوياء، ولهذا وسعت الرحمة الأقوياء بسبب الضعفاء فكانت العبادات في الإسلام مما يسهل أداؤه على الناس جميعاً حتى المرضى والأطفال. لأنه دين الفطرة الذي يطيقه الإنسان في طفولته وشبابه ورجولته وشيخوخته، وفي صحته ومرضه، وفي ظعنه وإقامته، وفي كل أوقاته.

ليلة القدر

في الحديث الأول الذي خصصته لأول يوم في شهر رمضان ذكرت ليلة القدر، لأنها ليلة نزول القرآن، ورأيت أن أتحدث في هذا اليوم بشيء من التفصيل عن هذه الليلة المباركة العظيمة في تاريخ الإسلام.

وسميت ليلةُ القدر ليلةَ القدر، لأنها ذات قدر عند الله وعند رسوله وعند أمة الإسلام جميعاً، وما في تاريخ الإنسان أشرف منها وأعظم، ومن شرفها العظيم أن الله خص بها محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته، وهي من الفرائد التي أكرم الله بها نبيه، فلم تكن في تاريخ أمم الأنبياء السابقين ولا في جميع تواريخ الماضين ليلة القدر وإن كان الصيام مكتوباً على الجميع.

وإجماع أئمة المسلمين منعقد على فضل ليلة القدر التي أجري فيها من النعم ما لا يحصى، ولعل أعظم فضل أنعم الله به على الوجود الإنساني كله وعلى الجن أيضاً اصطفاء

الله محمد بن عبد الله لرسالته العظمى الخالدة إذ أعلنه بالنبوة عندما أنزل عليه قوله الكريم: ﴿اِقرأ باسم ربك الذي خلق● خلق الإنسان من علق● إقرأ وربك الأكرم● الذي علم بالقلم● علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

في ليلة القدر التقت السماء والأرض، ولم يكن الالتقاء بهبوط السماء وإنما بارتفاع الأرض إليها إذ أضاءت بالملائكة الذين تنزلوا، وبانتشار نور القرآن.

في ليلة القدر المباركة غشي الأرضَ الهدى والرحمةُ من الله تبارك وتعالى وذلك بأن جعل رسالة محمد هدى ورحمة للعالمين، ومن آيات هذه الرحمة العامة الشاملة الدائمة أن الله قدر لأمة محمد ألا يبيدها بعذاب عام[1]. فمع وجود الموبقات جميعها في أمته منعت رحمته أن تعمهم لعنته.

رأينا ما وقع على قوم نوح وقوم صالح وقوم هود وقوم

---

(١) في حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دعا الله ألا يأخذ أمته بعذاب عام، فاستجاب عز وجل، وحديثه صلى الله عليه وسلم هذا من دلائل نبوته، فقد مضت أربعة عشر قرناً تصدقه وتؤيده. وستمضي قرون أخرى تصدقه، وصدق الله العظيم، وصدق نبيه الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

لوط من العذاب الذي محقهم محقاً، وأزالهم وأبادهم جزاء وفاقاً على تكذيبهم رسلهم وعلى اقترافهم الآثام والمعاصي. مع أن في أمة محمد صلى الله عليه وسلم مكذبين ملحدين غرقى في الكفر والفساد والموبقات فلم يأخذهم بذنوبهم بمثل ما أخذ أقوام أولئك الأنبياء، لأن الله أكرم أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالرحمة تصحب كل أحد من هذه البلايين إلى أن تغادر الروح جسده.

وأي رحمة على الفرد من أمة محمد أعظم من أن يقترف من الكبائر والمعاصي والموبقات ما يجعله من أهل النار، فإذا أكرمه الله بالتوبة الصادقة كان من المرحومين، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

ومن هذه الرحمة التي جعلها الله من نصيب أمة محمد التوبة التي جعل بابها مفتوحاً أبد الدهر لكيلا ييأس المؤمن من رحمة الله.

ومن قدر ليلة القدر عند الله أنها خير من ألف شهر، خير من عمر الإنسان كله، والإنسان لا يبلغ عمره هذا المقدا من الشهور التي تكوِّنُ الألف منها اثنتين وثمانين

سنة ونصف سنة، وهو عمر طويل قلَّ من يبلغونه، أما بالنسبة لسكان الأرض في هذا الزمان فهو عمر جدٌّ طويل، لأن متوسط أعمارهم لا يزيد على الستين مع تقدم الطب.

وفضل ليلة القدر لا نستطيع نحن البشر إدراك كنهه، وكل ما نعلمه هو ما ذكره الله في سورة القدر، وأَعْظِمْ به من فضل: نزولِ القرآن وتنزل الملائكة ورئيسهم جبريل، وما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم، وما استنبط العلماء من هذا الذكر المحمود.

وإذا كان الإجماع من العلماء منعقداً على فضل ليلة القدر فإن الخلاف بينهم شديد في تحديدها، وكثرت الأقوال فيه إلى ما يقرب من أربعين، ولا ضرورة لذكر هذه الأقوال، وإن كان أرجحها وقوعها في العشر الأواخر، وفي الوتر دون الشفع، واختلفوا في تحديد ليلة القدر من الليالي العشر، وإن كانت هناك روايات منها ما يذكر قول الإمام أبي حنيفة: إنها تنتقل في جميع رمضان، وقد قال النسفي في منظومته:

وليلةُ القدْر بكلِّ الشهرِ دائرةٌ وَعَيْنَاها فَادْرِ

وقيل: إنها أول ليلة في رمضان حكاية عن أبي رَزِينٍ

العُقَيْلي الصحابي، وفي حديث أنس: ليلة القدر أول ليلة من رمضان.

وقيل: إنها ليلة السابع عشر كما روي في حديث مرفوع عن ابن مسعود، وفي حديث زيد بن أرقم قوله: «ما أشك ولا أمتري أنها ليلة سبع عشرة من رمضان ليلة أنزل القرآن» وهو قول الشافعي والحسن البصري: إنها ليلة بدر التي وقعت يوم سبعة عشر من رمضان الذي وصفه الله في كتابه الكريم بقوله: ﴿يَوْمَ الفرقان﴾ وكان يوم جمعة.

وقيل: ليلة تسع عشرة.

وقيل: ليلة إحدى وعشرين، ففي صحيح البخاري[٢] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عَشْرَ الأول من رمضان واعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك فقام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً صبيحة عشرين من رمضان فقال: من كان اعتكف مع النبي صلى

---

(٢) الطبعة الأميرية ١٥٨/١ - ١٥٩ باب السجود على الأنف والسجود على الطين.

الله عليه وسلم فليرجع فإني أُريتُ ليلة القدر وإني نُسِّيتها، وإنها في العشر الأواخر في وتر. وإني رأيت كأني أسجد في طين وماء، وكان سقف المسجد جريد النخل وما نرى في السماء شيئاً فجاءت قَزْعة فأُمطرنا فصلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرنبته تصديق رؤياه.

وقيل: ليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين.

ولعل من أرجح الأقول: ليلة سبع وعشرين، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه: «إنها ليلة سبع وعشرين».

والشيء الثابت أنها في العشر الأواخر في الأوتار، وليس حتماً أن يفطن لها المسلم، بل يكفي أن يدعو الله ويتقرب إليه بما صلح من القول والعمل في كل ليالي هذا الشهر، فلا بد أنه مصادف في إحداها ليلة القدر فيتقبل الله منه فيكون في حسنة واحدة مقبولة الخير كله، لأن الله يضاعفها، فإذا ضاعفها إلى سبعمئة ضعف كان الناتج عدداً لا يكتب ولا يقرأ، إذ يكون واحد على يمينه مئات الأصفار، فما أسعد المؤمن بكرم الله، والحمد لله رب العالمين.

القرآن كلام الله وليس بكلام بشر

- ١ -

نحن المؤمنين منذ سمعنا القرآن أول نزوله حتى اليوم لا يمكن أن يخامرنا ذرة من الشك في أن القرآن المجيد كلام الله، كل القرآن كلامه، وإيماننا الجازم بهذا ينفي عنا مجرد التوهم أنه كلام بشر أشبه الشهادة، فكما أننا في الشهادة نؤمن إيماناً جازماً أنه الله الحق نثبت ألوهيته كما نثبت وحدانيته وتلقاء هذا الإثبات ننفي ألوهية غير الله، وكذلك نشهد أن القرآن كلام الله شهادة حق نحيا عليها ونموت.

وعندما نزل القرآن على نبي الهدى والرحمة محمد صلى الله عليه وسلم زعم بعض الزاعمين من المشركين أنه كلام بشر فتحداهم الله أربع مرات في سور أربع.

قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس

والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

فالله جل جلاله لم يقصر التحدي على البشر وحدهم، بل أشرك معهم في التحدي الجن أيضاً حتى لا يجرؤ أحد من الإنس أن يزعم أنه من الجن فيمحق التحدي كل دعوى.

كل الإنس وكل الجن دون استثناء، بل استغراقٌ للعموم كله لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض عوناً وسنداً.

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿أم يقولون افتراه قل فأْتوا بسورة مثلِه وادعـوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾.

وقال تعالى في سورة هود: ﴿أم يقولون افتراه قل فأْتوا بعشر سور مثله مفترياتٍ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾.

ثم يـأتي التحـدي مع الوعيد الشديد حتى يتحمس القادرون فيبرزوا مستجيبين للتحدي ولا يُبْقي لديهم أي عذر للتخلف إلا إذا أقر موقفهم بالعجز كله.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا

على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين● فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾.

وهذا تحدٍّ لا يمكن صدوره من إنسان لم يكن معروفاً بالفصاحة والبلاغة والبيان، وإنما هو من عالم غيب السماوات والأرض، إذ لا يمكن لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتحدى أبلغ البلغاء بكلامه وهو ليس من فرسان البلاغة والبيان.

ولكن هذا التحدي العنيف بالوعيد والتهديد والتحقير صادر من الله جل جلاله يدافع عن كلامه.

إنه يتحداهم بأنهم لن يستطيعوا، ويقرر «عجزهم بما يثير حميتهم ويغريهم بتكلف المعارضة، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا النفي الاستقبالي المؤكد أو المؤبد من عاقل كالنبي عليه الصلاة والسلام في أمر ممكن عقلاً لولا أنطقه الله الذي خصه بالوحي وهو الذي يعلم غيب السماوات والأرض بأنه غير ممكن لأحد»[1].

ومنذ أربعة عشر قرناً والتحدي قائم، ولم يرد قط في

---

(١) تفسير المنار ١/١٩٤- ١٩٥.

كلام عربي آية واحدة مثل آية قرآنية لا عفواً ولا قصداً.

ويزعم أناس فيهم عرب وعجم من المستشرقين أن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم، وليس لدعواهم أي دليل، إلا أن القرآن ظهر من محمد الذي ادعى أنه كلام الله لفظاً ومعنى.

وأنا أعجب من هذا الادعاء. فقدرة محمد في الفصاحة والبلاغة والبيان محدودة، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أنعم على نبيه بالنبوة فالرسالة المصحوبة بالبيان الرفيع والبلاغة العالية فإن هذا الإنعام لم يخرج محمداً صلى الله عليه وسلم عن قدرته البشرية إلى الخوارق والمعجزات في ميدان البيان.

فموهبة البلاغة والبيان والإيجاز المحكم التي وهبها الله لرسوله صارت مضرب المثل، ومع هذا كان في مقدور البشر من أهل الفصاحة أن يأتوا بمثل كلام الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وفي وسعهم محاكاة كلامه، وقد استطاع بعض الوضاعين أن يختلقوا على رسول الله وأن ينحلوه كلاماً دسُّوه عليه لولا توفيق الله لأئمة استطاعوا نفي الزائف وإثبات الصحيح.

وإذا كان القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم فلماذا

يعجز البلغاء عن الإتيان بمثله؟ وإذا كان القرآن كلامه فغير متعذر أن يُحَاكى، بل في الوسع محاكاته والإتيان بمثله.

وعجز البشر جميعاً عن الإتيان بمثل القرآن ينفي عنه البشرية نفياً يصل إلى الاستحالة.

ولكي نبرهن لمن زعموا أن القرآن كلام محمد نقول: إن نسق القرآن فريد، وبين يدينا آلاف أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيها الحديث المطَوَّل والموجز والوسط، وليس بين هذه الآلاف حديث واحد يشبه نسق القرآن الكريم.

ومهما يحاولْ إنسان أن يُنَكِّر أسلوبه فإن سماته الخاصة ستظهر إخفاق هذه المحاولة عندما ينم الأسلوب على صاحبه الأصيل مهما برع في التنكير لإخفاء كل علامات أسلوبه الفارقة.

فإعجاز القرآن من ناحية اللفظ وبناء الجمل والتركيب والموسيقى والجرس ينفي عنه بشريته، ويثبت أنه كلام الله الحق.

بل ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث قدسية مَرْوِيَّة عن الله سبحانه وتعالى لفظاً ومعنى، ولكن أسلوبها ليس معجزاً كالقرآن المتفرد بنفسه وأسلوبه، وليس لها

« اعتبار القرآن، فلا يُتَعبَّد بتلاوتها ولا يجوز أن تقرأ في الصلاة، ولا يجوز أن يطلق عليها اسم السورة والآية تنزيهاً للقرآن حتى لا يظن العامة أنها منه ».

ومباح أن يُرْوى الحديث القدسي بالمعنى، وهذا محرم بالنسبة للقرآن.

وموجز القول إن القرآن معجز بلفظه وتركيبه، ومستحيل كل الاستحالة أن يأتي البشر بمثله أو يحاكوه، ولهذا كان القرآن معجزاً، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

القرآن كلام الله وليس بكلام بشر

- ٢ -

فيما سبق من الأحاديث أثبتنا أن القرآن كلام الله عز وجل وليس بكلام بشر، وليس بكلام رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام، وأثبتنا أن تحدي القرآن أن يأتوا بسورة من مثله قد أعجز كل البشر، أعجزهم بنسقه الفريد في القول فثبت أنه كلام الله.

وليس إعجاز القرآن وقفاً على هذا النسق الفريد وحسب، بل هو معجز بما احتوى من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا هو جل جلاله، وقد ذكرنا حادثين من أمور الغيب لم يكونا معروفين في وقت نزول القرآن، وإنما عرف بعده، فكلما مرت السنون والقرون ظهر صدق القرآن الذي لا يمكن أن يصدر من مخلوق.

ومحمد رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يقرر ويعلن

دائماً أنه بشر، وأنه كسائر البشر في كل صفاته، ولأنه بشر وإن يكن رسولاً لا يعلم الغيب، لأن الغيب لا يعلمه إلا الله، فهو وحده الذي عنده مفاتحه.

أما إذا كان تنبأ بأمور حدثت بعد زمنٍ من التَّنْبِيء فذلك ليس من علمه، وإنما هو من علم الله عز وجل أوحى به إلى نبيه فخبَّر به.

ومن أمور الغيب التي أخبر بها الله عباده في كتابه الحق قوله: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين● فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾.

في هاتين الآيتين حقائق من أمور الغيب، بعضها قديم، وبعضها في المستقبل.

فالله أخبر أن بيته بمكة أول بيت وضع للناس، ليس في الأرض بيت سبقه مع أن هناك رسلاً كراماً سبقوا إبراهيمَ واسماعيلَ اللذين بنيا هذا البيت المعظم.

ومع أن إبراهيم عليه صلوات الله وسلامه كان رسولاً إلى قومه وكذلك إسماعيل، ولم يكن أحدهما أو كلاهما للناس

كافة فقد قام البيت لعبادة الله كما حجه إبراسيم وإسماعيل ومن عاصروهما بمكة حتى كان لعموم البشر بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

وأولية البيت تقوم على الشرف والزمان معاً، فما ثم بيت سبقه، وكان لمن سبقوا من الأنبياء معابد لهم ولمن آمنوا بهم، ولكنها لم يكن بينها بيت الله، لأن من « لوازم » بيت الله الحج، ومنها: الطواف به والسعي بين يديه، وأن يكون القصد إليه على هيئة مخصوصة وبملابس خاصة وفي وقت معلوم.

وهذه « اللوازم » من خصائص هذا البيت لم يشركه في الماضي بيت سواه ولا يشركه في المستقبل أبداً.

أما المستقبل ففي علم الله، ولكنه أعلم عباده بأن بيته أول بيت وضع للناس، وقد أظهرت الكشوف العلمية والأثرية صدق ما أخبر الله به فلم يظهر بعد مَسْح آلاف السنين بيت لله مما يؤكد أولية بيت مكة في الزمان وفي الشرف.

وثبوت هذه الأولية منذ نزول القرآن برهان على أنه كلام الله وليس بكلام بشر، وعلى مر القرون زاد الثبوت تأكيداً، فقد ظهرت في العالم مئات المعابد بل آلاف من

بيوت الأصنام والأوثان والشيطان ولم يظهر ما ينقض أولية البيت الحرام.

وما يستطيع بشر أن يتنبأ بأمور الغيب في ثقة ويقين إلا إذا كان رسولاً حقاً أو نبياً صدقاً يوحى إليه من ربه، أما غير هؤلاء فلا.

وإن إخبار الله أن بيت مكة أول بيت وضعه للناس حق ثابت ينفي صدوره عن غيره، لأن البشر لا يعلمون الغيب وبخاصة غيب المستقبل، فرسول الإسلام عليه الصلاة والسلام مثله مثل سائر البشر لا يعلم الغيب. وما دام الأمر كذلك فالقرآن ليس كلام محمد ولا كلام أحد من الخلق، لأن القرآن في أسلوبه نمط فريد معجز يستحيل على البشر أن يأتوا بمثله، ومعجز أيضاً بما اشتمل عليه من أمور الغيب مما لا يعلمه غير الله سبحانه وتعالى.

وإذا كان القرآن كلام محمد على سبيل الفرض والجدل فما أدراه أن هذا البيت سيكون أبد الدهر محجة؟

يفرض في حياته على الناس أن يحجوه ليظهر صدقه لهم فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى، ومضى على وفاته مئات السنين بقي البيت محجوجاً إليه، فمن الذي يدفع عشرات

الألوف إلى حج البيت؟ ومن أعلم محمداً أن الحج باق ودائم ومتجدد؟

إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يملك من الأمر شيئاً، فالأمر كله لله، وما يعلم الغيب، بل لا يعلم ما يخبئه له القدر في غده. وكان يعترف هو نفسه صلى الله عليه وسلم بذلك كله وبكل ما يثبت بشريته وعبوديته.

وبقاء الحج هذه المئات من السنين يثبت أن القرآن ليس بكلام محمد ولا بكلام بشر. وإنما هو كلام علام الغيوب.

وفي القرآن من أنباء الغيب ما لا يمكن أن يصدر من أحد من الخلق، لأن الخلق جميعاً لا يعلمون الغيب الذي هو من علم الله وحده لا يشركه فيه أحد، إذ لا شريك له في ملكه وإرادته.

ونحن لا نتقصى كل ما اشتمل عليه القرآن من أنباء الغيب، بل ذكرنا لإقامة البرهان بضع حوادث تثبت للقرآن إعجازه في اللفظ والمعنى.

فإذا عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثل هذا القرآن العظيم، لأن نسقه فريد وأسلوبه معجز فإن هذا

الإعجاز كامن أيضاً في محتواه، فلا يمكن لبشر أن يأتي بمثل هذا القرآن مع أن ألفاظه مما يملك الناس ويستعملونه.

وإذا كان الناس يتفاوتون قدرة وتصرفاً في استعمال الألفاظ فيسمو بعضهم على بعض في البلاغة والبيان فإن قدرة الله خالق الأرض والسماء وخالق الفصحاء والبلغاء أعظم.

فلا عجب إذا كان كلام الله جل جلاله معجزاً لجميع خلقه فلا يستطيعون ولو اجتمعوا له أن يأتوا بمثل هذا القرآن كلام الله العزيز الحميد.

تحدي القرآن حق وإلى قيام الساعة

لو كان القرآن الكريم كلام محمد صلى الله عليه وسلم لما جرؤ على أن يتحدى به البشر جميعاً، لأنه يعلم من نفسه إلى أي مدى تنتهي قدرته في البلاغة والبيان، ويعلم أنه لم يكن من فرسانها، فهو لن يجازف بتحدي من شهد لهم البلغاء بأنهم أبلغ البلغاء، إذ سيغلبونه عندما يأتون بما هو أبلغ من كلامه لا بمثله.

وما دام هذا التحدي قد وقع فإن من المقطوع به أن محمداً صلى الله عليه وسلم موقن كل الإيقان أن هذا القرآن ليس إلا كلام الله، وما بطاقة بشر أن يأتوا بمثله، لأنهم يعجزون عن الإتيان بما هو من حق الله وحده، ولهذا كان التحدي الذي اطمأن إليه الصادق الأمين رسول رب العالمين محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه مؤمن بعجز البشر عن الإتيان بمثل هذا القرآن.

وذهب بعض العلماء الأكابر إلى أن قول الله تعالى: ﴿مِنْ

مثله﴾ في قوله: ﴿فإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ مقصود من مثل محمد في أميته وفي مكانته من فن القول الذي لم يكن فيه من أرباب البلاغة والبيان، وإنما كان من عامة الناس من أمثاله في عصره.

وحقاً، إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اشتهر في الجاهلية بالأمانة حتى لقب بالأمين، كما عرف بمكارم الأخلاق، ولكن لم يعرف بالبلاغة والبيان، وما كان من فرسان هذا الميدان.

وفوق هذا ما كان يعرف القراءة والكتابة، لأنه كان أمياً، مع أن عديداً من شباب قريش كانوا يحسنون القراءة والكتابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

وقد سبق في علم الله تعالى أن سيكون محمد بن عبد الله نبياً رسولاً إلى الناس كافة، وأنه سيُنْزِل عليه كتابه الأعظم فجعله أمياً حتى لا يتهم بأن القرآن كلامه وليس بكلام الله، وجعله مع هذه الأمية من عامة الناس في الكلام، ولا يذكر في الفصحاء لأنه لم يكن منهم.

فتفسير بعض أئمة المفسرين أن الضمير في قوله: ﴿من مثله﴾ يعود إلى عبده محمد الأمي العامي غير المعروف

بالفصاحة لا يرضيني، لأن الشجاع لا يتحدى الجبناء، وإنما يتحدى من هو مثله في الشجاعة، والبليغ لا يتحدى غير البلغاء وإلا فقد التحدي قوته.

والقرآن الكريم أرقى نمط في البلاغة العربية لا يتحدى غير عباقرة البلغاء أن يأتوا بسورة من مثله، ولم يكتف بالإنس وحدهم بل أضاف إليهم الجن ذهاباً بالتحدي إلى أقصى مدى يتصوره خيال الإنس والجن.

ولم يبرز من بين صفوف الإنس والجن من قَبِلَ التحدي حتى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإن من زعموا أو يزعمون أن القرآن كلامُ محمد صلى الله عليه وسلم يبرهنون على فساد ذوقهم وحسهم، لأن بين أيديهم آلاف الأحاديث من كلام محمد صلى الله عليه وسلم.

ولو كانوا على شيء يسير من سلامة الذوق والحس لأدركوا أن أسلوب القرآن فريد لا يشبهه كل كلام العرب وفيه كلام محمد نفسُه بعد أن وهب الله له بعد النبوة والرسالة البلاغةَ العاليةَ والإيجازَ المحكَمَ الرائعَ المعروفَ بجوهر الكلم.

ومنذ نزول القرآن والعربية تخرج عباقرة أفذاذاً في

البلاغة والبيان حتى يومنا هذا، وخلال الأربعة عشر قرناً الماضية لم نجد في كلامهم الذي يملأ مئات المجلدات بل آلافها ما يشبه سورة صغيرة من سور القرآن مما يؤكد أن القرآن ليس بكلام بشر، بل هو كلام الله وحده بلا جدال.

وإذا كان نسق القرآن الفريد ينفي دعوى أنه كلام محمد أو كلام بشر فإن محتواه يؤكد النفي أيضاً.

فعندما قال الله عز وجل: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾[1] وألهم الله رسوله الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي أن يقول: «لا نبي بعدي» كان هذا التقرير حقاً، كما كان نفي ظهور نبي حقٍّ بعده واقعاً مشهوداً.

ولو لم يكن القرآن كلام الله وكان كلام محمد فما الذي أعلمه أنه آخر الأنبياء ولا نبي بعده؟ أتراه يعلم غيب السماوات والأرض فيخبر عن السماء كما يخبر عن الأرض ما وقع في غابر الزمان، وما سيقع في مقبل الأيام؟.

منذ أربعة عشر قرناً ذكر القرآن أن محمداً خاتم النبيين وذكر محمد نفسه أنه لا نبي بعده، ومضت القرون تصدِّقُ

---

(١) الأحزاب: ٤٠.

القرآن ورسول الإسلام فكان محمد- حقاً- خاتَمَ الأنبياء فلم يظهر نبي حقٌّ ولن يظهر أبداً.

ولقد ظهر أفراد ادعَوْا النبوة وظهر للناس كذبهم فهلكوا هم وما ادَّعَوْا وبقي محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين.

وجاء في القرآن الكريم في قصة فرعون وموسى: ﴿فاليومَ ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾ وجاء في توراة اليهود التي بين أيدينا أن فرعون موسى غرق، وأكد القرآن غرقه، ولكن الكشوف الأثرية أثبتت أن فرعون موسى موجود في مقبرته، جثته موجودة، ووجود الجثة تكذيب للتوراة كأنما ينفي الغرق، ولكن ليس تكذيباً للقرآن الذي أثبت الغرق وأثبت نجاة الجسد بعد الغرق جثة لتكون عبرة، وصدَقَ القرآنُ إذ ثبت أن مقبرة فرعون الغريق لم تُعَدَّ إعداداً كما أُعِدَّت من قبل ومن بعد مقابر الفراعنة، لأنهم ما كانوا يعلمون الغيب فيُعِدُّون قبره قبل وفاته بزمن، بل فوجئوا بهلاكه ونجاة بدنه فبنوا القبر على عجلة من أمرهم كما دل كشف المقبرة وحالتها.

فمن كان يُدْرِي محمداً بما سيظهر بعد أربعة عشر قرناً فيتنبأ بأمر من أمور الغيب في المستقبل؟ إذا كان القرآن

كلامه وكان ما جاء فيه من علم محمد بالغيب البعيد فهذا يجرده من الآدمية لأن أبناء آدم لا يعلمون الغيب، أَمَا ومحمد عَلَمَه عِلْماً فقد ارتقى على البشر وفاقهم فَوْقاً عظيماً.

وعلى رأي بعض الباحثين أنهم لم يرضوا برسالة محمد إذ زعموا أن القرآن كلامه فرفعوه بذلك إلى مقام الألوهية والربوبية.

ولكنا نحن المسلمين نؤمن أن محمداً بشر رسول، وأنه عبد كسائر عبيد الله، والقرآن كلام الله، فما جاء فيه من أخبار الغيب في المستقبل إنما ذلك إخبار من الخلاق العليم في كتابه الكريم.

أي الأديان أصلح للبشرية

عقيدة وشريعة

الدين الذي يصلح لأن يكون للبشرية جمعاء يجب أن يتوافر فيه شرطان وإلا فقد صلاحه، فأي الأديان هو هذا الدين؟

الشرطان اللذان يجب توافرهما في دين الإنسانية الخالد هما العقيدة الصحيحة السليمة والشريعة السمحة الطيبة.

وفي العالم اليوم هذه الديانات: الهندوكية والبوذية واليهودية والمسيحية والإسلام وديانات وثنية صغيرة محلية كبعض ديانات إفريقيا.

وإذا درسنا الهندوكية والبوذية والجينية وغيرها من ديانات الهند نجدها غير صالحة للبشرية كلها، لأن البوذية والجينية لاهوت بغير إلّه، لا وجود في هاتين الديانتين لإلّه، فهما ديانتـان ملحدتان، ولم يدَّع أتباعهما أنهما تصلحان للبشرية، ولو ادعوا لأعوزهم الدليل.

فكل من الديانتين خالية من العقيدة التي تصلح ومن الشريعة التي تحكم بني البشر على اختلاف الألوان والأجناس والأوطان واللغات والثقافات، وهي - بعد - خالية من العقيدة الدينية الصحيحة السليمة، فهي - لهذا - لا تصلح لأن تكون دين البشرية كلها لفقدانها شرطيْ الصلاح.

وهناك ديانات كالكنفوشيوسية والطاوية اللتين في اليابان والصين، وديانات صغيرة محلية وثنية كديانات قبائل في إفريقيا غير صالحة لخلوها من الشريعة، أما العقيدة فوثنية لا يتطلع أكثرها إلى السماء وإنما هي ملتصقة بالتراب. وبذلك فقدت كلها شرطيْ الصلاح.

وبقيت الديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، فأيهن الدين الصالح لأن يكون دين الإنسانية كلها؟

اليهودية؟ إن اليهود أنفسهم لا يعترفون بصلاحها للبشرية كلها، بل يقررون وَقْفها على الجنس اليهودي وحده، فهو دين خاص بهم لا يشركهم فيه غيرهم، ولا يقبلون أن يدخله أحد من غير اليهود، فهو وقف عليهم وحدهم، وقد أغلقه أتباعه على أنفسهم، حتى أن رب اليهود الذي يسمونه «يَهْوَهْ» رب قبلي محلي خاص بهم، لا

هم يقبلون أن يشاركهم فيه غير بني جنسهم، ولا يقبل هو نفسه أن يكون رباً لغيرهم.

إنه بمنزلة الأب، فكما أن الأب لا يرضى أن ينتسب إليه أولاد من غير صلبه كذلك يهوه لا يرضي بغير اليهود أتباعاً له وعباداً.

ومع هذا نفحص اليهودية لنصل إلى جواب هذا السؤال: أتصلح لأن تكون ديناً للبشرية كلها؟

إن أهل هذه الديانة أعرف الناس بحقيقة دينهم، ولاعتقادهم بعدم صلاحه لغيره أغلقوه على أنفسهم ومنعوا غيرهم من الدخول فيه، واليهود في هذه المسألة على صحة، فاليهودية غير صالحة بَتَّةً، لأن عقيدتها شاذة وثنية، فربهم يهوه - كما يصفونه في توراتهم وفي تلمودهم المقدسين لديهم - موصوف بما يجرده من الكمال ويهبط به إلى دنيا البشر ويصفونه بنقائص وعيوب كسوء التصرف والخبث والتوحش، فيندم على ذلك.

فاليهودية غير صالحة لأن تكون دين البشرية لفساد العقيدة فيها، أما الشريعة فهم لا يطبقونها على أنفسهم، لأنهم واثقون من عدم صلاحها فتركوها.

ونحن نوافقهم على عدم صلاح شريعة اليهود ، فإذا كانت صالحة لمن هي لهم فهي بطبيعة الحال غير صالحة لغيرهم من البشر، فتوراتهم وتلمودهم يأمرانهم بكراهية الناس وسبهم وسرقتهم وقتلهم والكذب عليهم وخداعهم وأكل أموالهم وحقوقهم بكل وسيلة تمكنهم من تحقيق آرابهم، ويشددان في أمرهم بأن يقتلوا أطفال غير اليهود وألا يرحموا أحداً من يسمونهم « القوييم » وهو اسم يطلقونه على كل البشر ما عدا اليهود.

فشريعة اليهود الحاقدة المجردة من الخير كله لا تصلح للحكم ولا للتعامل بها فيما بين الناس.

أما الديانة المسيحية فقد حكم عليها أهلها وبخاصة رجال الدين منهم، بل حكم عليها المسيح نفسه إذ قال: « دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » حيث عزل الدين عن الدنيا، لأن الدين لا يصلح للحكم الذي هو من حق الحاكم وحده.

ونظرية التثليث في الديانة المسيحية لم تكن في الأساس منها، بل هي دخيلة عليها من الوثنيات التي سبقت المسيحية في عقيدة التثليث مثل ديانات بابل وأشور ومصر وغيرها، بل ثبت عن طريق باحثين أوربيين يدينون

بالمسيحية عن إيمان بها وإخلاص لها وجود التثليث المسيحي بأسمائه وصفاته وطقوسه في ديانة المكسيك، فعندما دخل الأوربيون المسيحيون لأول مرة المكسيك اكتشف قسيس مسيحي الثالوت نفسه.

يقول اللورد كنجسبرو Kingsborough في كتابه « الآثار المكسيكية القديمة » Antiquities of Mexico المجلد الخامس صفحة ١٦٤: « والمكسيكيون يعبدون إلَهاً مثلث الأقانيم، ولما عُيِّنَ برتولوميو مطراناً سنة ١٤٤٥ أرسل القس فرنسيس هَرْمَنْديز إلى المكسيك ليبشر بالدين المسيحي بين الهندوس (سكان المكسيك) وكتب إلى المطران رسالة يقول له فيها: « إن الهندوس يعبدون آلهاً في السماء مثلث الأقانيم وهو الله الآب والله الابن والله روح القدس والثلاثة إلَه واحد الخ ».

فعقيدة الثالوث أنكرها أقطاب المسيحية وأكبر فلاسفتهم في هذا القرن، وهي لا تصلح لأن تكون دين البشرية كلها لأنها عقيدة وثنية لها نظائر في الوثنيات الأخرى.

وليس في المسيحية شريعة، لأنها تعترف بشريعة التوراة التي صارت شريعة المسيحيين، وهي غير صالحة للفريقين،

ولهذا قضوا عليها هم أنفسهم وحكموا بعدم صلاحها.

ونحن معهم في عدم صلاح المسيحية لأن تكون ديناً عاماً للبشرية كلها عقيدة وشريعة

ولم يبق إلا الإسلام، فهل يصلح لأن يكون دين البشرية جمعاء عقيدة وشريعة؟.

هذا ما سنجيب عليه في حديث الغد إن شاء الله.

الإسلام أصلح الأديان للبشرية

عقيدة وشريعة

ثبت في الحديث السابق أن الأديان القائمة في هذا العصر وهي البوذية والجينية وغيرهما من ديانات الهند والكنفوشيوسية والطاوية في الصين وفي اليابان وكل الديانات الأخرى الوثنية واليهودية والمسيحية غير صالحة لأن يكون أحد تلك الأديان للبشرية، بل لا تصلح العقيدة والشريعة منها جميعاً.

ولم يبق غير الإسلام، وليس صلاحه أن كل الأديان القائمة على وجه الأرض فاقدة الصلاح، وإنما صلاح الإسلام حق يؤيده ما فيه من معتقد صحيح وشرع سليم.

فعقيدة الإسلام تقوم على وحدانية الله عز وجل، لا شريك له ولا شبيه ولا ولد ولا صاحبة، بل هو الواحد الخالق.

وانتهى تنزيه الله في الإسلام إلى أعلى مرتبة في التنزيه،

فليس كمثله شيء في الأرض والسماء، ويؤمن الإسلام بأن كمال الله مطلق، إنه كامل في وجوده ووحدانيته وكل صفاته المثلى كمالاً مطلقاً.

ولما كان الله في عقيدة الإسلام كاملاً كمالاً مطلقاً اقتضى هذا الكمال أن يكون فرداً لا شريك له، وأن يكون رب العالمين، لا إله إلا الله وحده، وليس لهذا الوجود كله رب سواه.

ولهذا ينكر على اليهودية ما تراه توحيداً وما هو بتوحيد، لأنه توحيد يعترف بالشرك وتعدد الآلهة، إن إلههم المسمى «يَهْوَهْ» واحد بالنسبة لليهود. هم أتباعه دون سواه من الآلهة، وهو وحده ربهم، ولا يشركهم فيه أحد من غيرهم، ومن هنا جاء توحيد الألوهية عند اليهود.

إنه توحيد مثل توحيد الأب بالنسبة لأولاده من صلبه، لا ينتسبون إلى غيره، ولا يمكن أن يتعدد آباؤهم، هو وحده أبوهم، وهم وحدهم أولاده، وليس معنى هذا نفيَ الأبوة عن جميع الآباء، ولا نفي البنوة عن غيرهم من أبناء الآخرين، بل ذلك الأب يعترف بآباء الآخرين كما يعترف أبناء ذلك الأب بأبوة الآخرين وبنوتهم.

كذلك بالنسبة ليهوه ربهم المعبود من قبلهم، فهم

يعترفون بآلهة الآخرين، إذن، قد اتسع الوجود لآلهة كثيرة، وذلك توحيد قائم على الاعتراف بالشرك وتعدد الآلهة.

أما الإسلام فينكر كل الإنكار على من يذهبون إلى تعدد الآلهة ويعتبرهم مشركين وكفاراً، ولا يعترف بأي إلّه غير الله جل جلاله، ولا يهادن الذين يؤمنون بالأوثان والأصنام، بل يعلن الحرب عليهم وعلى ما يعبدون على الدوام.

ولما كان الله في الإسلام كاملاً كمالاً مطلقاً اقتضى نفي الشريك، لأن الكامل لا يقبل التعدد. لأن مجرد التعدد إقرار بالنقص في المكرر مرتين أو أكثر، وإذا كان الاثنان كاملين فأحدهما زائد لا ضرورة له، وحينئذ يكون وجود أحدهما عبثاً. ومعاذ الله أن يُقْبَلَ العبث في حق الله.

فالله في دين الإسلام واحد أحد. وانتهت فيه العقيدة إلى الصحة التامة والسلامة المثلى والمرتبة التي ليس وراءها ما بعدها أو فوقها مما لا نظير له في جميع الديانات والفلسفات.

فدعوى التثليت في المسيحية نقص في حق الله، لأنه مكرر في أشخاص ثلاثة دعَوْها أقانيم، والتكرار برهان على النقص. يضاف إليه أن العقيدة الإلّهية في الديانة المسيحية

عقيدة مركبة معقدة لا يمكن لمسيحي أن يفهمها فهماً مستقيماً فيتخذ أسلوب السفسطة والثرثرة الجوفاء.ين.

وإذا أنكر الإسلام على اليهود فكرة الألوهية والتوحيد فهو أشد إنكاراً على تثليث المسيحية، ويؤمن بإنكاره عليها أقطاب في الفكر والفلسفة والعلم والأدب من أئمة المسيحيين مثل برتراند رسل وبرنارد شو.

ولم يعرف تاريخ الإنسان عقيدة دينية أشرف وأفضل وأتم وأسمى وأكمل من عقيدة الإسلام في الله جل جلاله وفي ذاته وصفاته وأسمائه.

أما إذا جئنا إلى الشريعة الإسلامية وجدناها أوفى الشرائع على الإطلاق بمطالب الروح والجسد وفاء يجعلها صالحة بحق لكل زمان ولكل مكان ولكل مجتمع، ولكل جماعة أو أسرة أو فرد يريد أن يحيا حياة كريمة طيبة فاضلة.

وإذا صلح الإسلام في ماضيه لمختلف الأمم والشعوب في مختلف العصور فهو أشد صلاحاً لأبناء هذا العصر في أي مكان من ظهر هذه الأرض إذا رغبوا في عيش كريم.

ظهر الإسلام في مكة، وثبت أمره وانتشر من المدينة

المنورة، فلما صار له مجتمع وحكم في المدينة صلح لأن يكون لمن أسلموا عقيدة وشريعة، وكان من أسلموا ليسوا عرباً وحسب، بل أسلم معهم من غير العرب، ولم يكن العرب قريشاً وحدهم، بل من مختلف قبائل العرب، ولم يكن من أسلموا أبناء نحلة واحدة، كان منهم من كانوا مشركين وكفاراً عبدة أوثان، ومن كانوا يهوداً ونصارى، ثم من مختلف الملل والنحل، انتظمتهم عقيدة واحدة وشريعة واحدة في كل قارات الدنيا المعروفة.

وما من إنسان سويِّ الفطرة والنفس والسجية إلا وهو يؤمن بصحة شريعة الإسلام وسلامتها وصلاحها للبشر جميعاً في جميع الأوقات والأزمان لأنها الشريعة السمحة السهلة الغراء.

ولا تتسع هذه الكلمة لضرب الأمثلة على صلاح الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان إلا مثالاً واحداً وهو صلاحها في الماضي لأن يحتكم إليها أمم الحضارة الكبرى في العالم فحكمتهم بالعدل وضمنت لهم السعادة والأمن من الجوع والخوف والعدوان على الأموال والأعراض والأنفس والثمرات.

كانت شعوب مصر والشام والعراق وفارس والروم

والهند والصين أرقى شعوب الأرض حضارة وعلماً وثقافة وفلسفة وأدباً، ورضيت بالإسلام عقيدة كما رضيت به شريعة فتحقق لكل من دانوا بالإسلام الحياةُ السعيدة المثلى، وبلغ الناس في ظل الإسلام مرتبة الحياة الكريمة الفاضلة فسعدوا وانتهوا إلى أن يكونوا النموذج الأمثل لبني البشر.

وما يزال الإسلام قادراً على إسعاد البشر بضمان العدل والأمن والسعادة لمن يرتضيه عقيدة وشريعة، ولهذا كان أصلح الأديان للبشرية عقيدة وشريعة فيما مضى في عصور ازدهاره، وما يزال أصلح الأديان عقيدة وشريعة للإنسانية في هذا العصر وكل عصر على مدى الدهر، لأن الله خالق الوجود كله أعلم بما يصلح لعباده فارتضى الإسلام ديناً للبشرية جمعاء حتى يعيشوا عيشة الطهر والأمن والسعادة والوئام.

عطاء الله خير كله

كل ما في الإسلام من عبادات ومعاملات وفرائض وأحكام مصدره خالق هذا الكون كله. وهو سبحانه وتعالى أعلم بمصالح عباده، فهو يختار لهم ما يضمن تلك المصالح ويحميها حتى ينعم الإنسان في هذه الحياة بحياته.

ولقد رأينا حياة رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام، حياته التي كانت سعادة تامة غشيت حياته كلها ظاهراً وباطناً.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيش عيش الكفاف، بل كان دون الكفاف. فقد كان يطوي الأيام لا يدخل جوفه طعام. وما أكثر ما كان يُمْضِي اليوم واليومين جائعاً، وذات مرة جاء إلى ابنته فاطمة عليها السلام وذكر لها أن أباها لم يدخل الطعام جوفه ثلاثة أيام. وما كان لدى ابنته طعام غير كسرة من خبز جاف.

وكان فراشه صلى الله عليه وسلم حصيراً غاية في

الخشونة، فدخل عليه صاحبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرأى أثر الحصير في جسده فبكى عمر، لأن سيد الخلق طراً يؤثر الزهد وبين يديه لو أراد ما ليس بين أيدي الأباطرة والملوك.

واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه يطلبن إليه النفقة وما كان معه ما ينفق.

وكانت حياته وحياة زوجاته حياة الفقراء والمساكين، ومع جفاف هذه الحياة واكتناف الفقر اياها كان صلى الله عليه وسلم وزوجاته وابنته وكل صحابته سعداء بما وهب الله لهم من نعمة الإسلام الذي يحوي كل النعم.

فما هذه السعادة التي جعلته راضياً مسروراً لا يشكو شظفاً ولا قلة، بل لم يَبْدُ عليه قط أي برم بما هو فيه من فقر وإقلال؟

إنها الشعور بالكمال أو بالقرب من الكمال، وكذلك سعادة كل امرىء هو هذا الشعور، فالراغب في الغنى يكون سعيداً عندما يشعر أنه قرب من الكمال الذي هو امتلاء خزائنه بالمال.

وسعادة رسول الله صلى الله عليه وسلم شعوره بالكمال أو بالقرب من الكمال الذي يتجلى في طاعة الله.

كان رضي النفس سعيداً وهو جائع، لأن همه لم يكن في دنيا يصيبها أو امرأة ينالها، أو مال يحرزه، أو طعام وشراب، كان كل همه من وجوده أن يعبد ربه ويرضيه بعد أن أرضاه الله بما أعطاه من النعم التي لا تحصى، وأعظمها الهدى إلى صراطه المستقيم.

لم يكن صلى الله عليه وسلم عبد الدرهم والدينار، بل قد قال: « تَعِسَ عبدُ الدرهم والدينار » وإنما كانت عبوديته لله وحده. فما مالت نفسه صلى الله عليه وسلم إلى شيء من هذه الدنيا إلا إلى ما يدنيه من ربه، فانصرف عما يقبل الناس عليه وهو قادر على تحقيق الآراب في المطعم والمشرب والملبس مما يدل على نعمة الحياة والوفرة في أطايبها، لأنه أدرك أن المجد الحق هو مجد الدين لا الدنيا، وأن السعادة أن يتقلب في نعمة الطاعة التي تكسبه رضا الله.

وكان صحابته يقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا جميعاً ذكوراً وإناثاً يتنافسون على الإكثار من العمل الصالح ويتسابقون إليه.

وكان فيهم من بالغوا في العبادة ظناً منهم أن في ذلك المزيد من رضا الله فمنعهم الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن في التكلف لأذى لا يريده الله لعباده.

ففي صحيح البخاري أن عبد الله بن عمروٍ قال: أُخْبِر رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أقول: والله لأصومنَّ النهار ولأقومنَّ الليل ما عشت، فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي، قال: « فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، وقم ونم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر » قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: « فصم يوماً وأفطر يومين » قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: « فصم يوماً وأفطر يوماً، فذلك صيام داود عليه السلام، وهو أفضل الصيام » فقلت: إني أطيق أفضل من ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « لا أفضل من ذلك ».

فعطاء الله سهل سمح دائم، ولهذا نصح رسول الله باتخاذ ما هو خير، ألا وهو البعد عن التكلف، والأخذ بما يتفق مع سماحة الدين ويسره.

ولو كان في التكلف خير لسكت عن سيدنا عبد الله بن عمرو حين عزم على أن يتكلف في العبادة ويكلف نفسه ما لا يتفق مع اليسر فمنعه، لأنه لم يدرك ما في هذا التكلف مما لا تحمد عقباه. ولم يكن يتصور أنه سيعجز ذات يوم فيترك ما كان قد أخذ نفسه به، وترك العبادة ليس حسناً، فمن الأولى والأحسن أن يكلف نفسه ما يطيق في المرض

والشيخوخة، لأن قليلاً دائماً خير من كثير ينقطع.

وفي حديث آخر لعبد الله بن عمرو ما ينم عن ندمه لأنه لم يأخذ باليسر أو بالرخصة بعد أن كبر ولم يكن في طوقه أن يؤدي من العبادة ما كان يؤديه وهو ذو قدرة، فلما أفقدته إياها الشيخوخة شعر بالتكلف الذي كان له في سماحة الإسلام ويسره سعة.

والحق، أن الصوم من عطاء الرحمن لبني الإنسان، وعطاء الله خير كله، وإنه لمتفق مع ما يرجوه الإنسان من الخير دون أن يرهق نفسه أو يعذبها، فما في فرائض الله عذاب، بل فيها النعيم إذا تم الإيمان وصدق.

ومن كرم الله أعطى بني الإنسان هذا الدين حتى ينعموا بعطائه الذي حوى الخير كله، فما من فريضة فرضها إلا كانت نعمة، لأن الله لا يعطي عباده إلا ما كان خيراً.

وإن فريضة الصوم في الإسلام عطية من عطايا الله جل جلاله، تقبلها الرسول والمسلمون بالحمد والشكران الدائمين، واحتوت هذه العطية الكريمة نعماً كثيرة متجددة.

سعة في الدين بكثرة الثواب المتاح في رمضان، وسعة في الدنيا بكثرة البر الذي يصنعه الصائم اقتداء برسول الله

صلى الله عليه وسلم الذي كان كما وصفه سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه إذ قال: كان رسول الله أجود الناس. وكان أجود ما يكون في رمضان، لأن فيه تكثر حسناته وصدقاته وأعمال بره.

وكثرة أعمال البر من قبل الصائمين سعة في الدنيا تلتقي مع السعة في الدين، حتى يبلغ الصائم عند الله مرتبة عليا حتى ليكون خُلوف فمه أطيب عند الله من ريح المسك.

فهل هناك عطاء مثل هذا العطاء، تتحول الرائحة الكريهة إلى ما هو أطيب من ريح المسك؟

كلا، لأن عطاء الله ليس كمثله عطاء، لأنه من الله، وما دام الله ليس كمثله شيء فإنه ليس كمثل عطاء الله عطاء فاض على نبي الإنسان.

الإسلام دين التفاؤل والسرور

يظن بعض الناس أن الإسلام دين الحزن والكآبة والانقباض وما ظنهم بحق، فالإسلام دين الفرح والابتهاج والتفاؤل، وكلمة الإسلام توحي بالسعادة، وما كانت السعادة قط ولن تكون حزناً، بل هي مزيج من الرضا وراحة النفس والمسرة.

أليس الإسلام سلاماً؟ أليست أصول كلمة الإسلام تدل على ما هو حسن وطيب وسليم؟ بلى، إذن، كيف يتطرق الحزن إلى دينٍ مَنْ اتبعه حق الاتباع كان من عباده الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وما من أحد إلا وهو يفرح إذا ارتاحت نفسه إلى شيء، ويعظم فرحه إذا تحقق له أمل عزيز.

وما ثم أمل أعز على المسلم من طاعة الله حق الطاعة، فإذا أطاع الله حقاً اهتز فرحاً، ويقول الله عز وجل: ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم

يرزقون● بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم ومنْ خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾[2].

ففي الآية يخبرنا الله عن الشهداء أنهم فرحون، وفي الثانية يأمر بأن يفرح من أكرمهم الله بفضله ورحمته.

والإسلام دين الفرح، لأنه مشتمل على بواعثه وأسبابه، ولهذا يحمل عليه دائماً.

ومن المسرة والابتهاج الفأل والتفاؤل، فقد كان رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يتفاءل، والتفاؤل فرح وسرور، وفي الحديث: قيل: يا رسول الله، ما الفأل؟ قال: «الكلمة الصالحة».

وكان رسول الله يتفاءل ولا يتشاءم، لأن التفاؤل من دواعي الفرح، والتشاؤم مما تنقبض له النفس. ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسر بالحسن من الأسماء

(١) سورة آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠.
(٢) سورة يونس: ٥٨.

والأشكال، فإذا سمع اسماً منفِّرا نفر منه واستبدل به ما هو حسنٌ وخير، وقد غير اسم «عاصية» وقال صلى الله عليه وسلم: «أنت جميلة» وغير اسم أصرم بزُرعة، وسمى حرباً سلماً(٣).

وفي «زاد المعاد» لابن القيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستحب الاسم الحسن، وأمر إذا أبردوا إليه بريداً أن يكون حسن الاسم حسن الوجه، وكان يأخذ المعاني من أسمائها في المنام واليقظة، فقد رأى في منامه أنه هو وأصحابه في دار عقبة بن رافع فأُتُوا برُطَب من رطب ابن طابَ فأوله صلى الله عليه وسلم بأن لهم الرفعة في الدنيا والعاقبة في الآخرة، وأن الدين الذي اختاره الله لهم قد أرطبَ وطابَ.

وفي غزوة الحديبية تفاءل رسول الله خيراً عندما جاء سهيل بن عمرو فتأول سهولة أمرهم، وقد كان.

وذات مرة أريد حَلْبُ شاة. فنهض رجل اسمه مُرَّة فأجلسه، فنهض آخرُ اسمه حرب فأجلسه، فنهض آخر اسمه يعيش فتركه يَحْلُبها.

---

(١) زاد المعاد من هدي خير العباد، لابن القيم.

وكان ينفر من أسماء القبائل والأمكنة ما كان كريهاً، فغير اسم قبيلة بني زِنْية إلى بني رِشْدة وكذلك بني مُغْوِية، وشِعْب الضلالة إلى شِعْب الهدى.

ومر في بعض غزواته بين جبلين، فسأل عن اسميهما فقيل: فاضحٌ ومُخْزٍ، فعدل عنهما، ولم يَجُزْ بينهما.

فالإسلام ورسول الإسلام ما كانا يرضيان إلا عما هو حسن، لأن الحسَن باعث على راحة النفس والسرور، ولهذا أحل الطيبات، ومنع الرهبانيّة وحرمان النفس من النعيم والمتعة واللذة الحلال.

ولا يظنَنَّ أحد أن الخوف من الله بمانع الفرح، بل هو من دواعيه، لأن المؤمن الحق الذي يشعر دائماً بالخوف من الله يفرح بهذا الخوف الذي يُعَمِّق إيمانه ويزيده.

ولما كان الإسلام دين التفاؤل والفرح كان فياضاً بهما على الدوام، فالمسلم الحق يفرح إذا أدى فرائض صلواته الخمس، ويفرح كلما هلَّل أو كبَّر أو سبح أو قال كلمة طيبة أو عمل صالحاً حتى لو أماط أذى من الطريق.

وكان قدوم رمضان باعثاً على الفرح، فما يكاد يُهِلُّ هلال شعبان إلا والمسلمون ينتظرون مقدم رمضان بلهفة

فإذا أهَّل هلاله هنأ بعضهم بعضاً، وما التهنئة إلا فرح نابع من القلب، ويعم الفرح بمقدمه كل المسلمين وأكثرهم إعلاناً لهذا الفرح الأطفال يخرجون إلى الشوارع يستقبلون رمضان بالأغاني، وتحسّ فيه بالأرض تضج بالمرح والحبور.

ولا تُدَوِّي المساجد وحدها بالقرآن، بل حُجُرات كل البيوت تدوي به ليل نهار.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهيىء نفسه من شعبان لاستقبال رمضان بما يجب أن يستعد له، وكان الله جل جلاله يجيبه على استعداده، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «كان رسول الله أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فَلَرَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة» متفق عليه.

وتلتقي السماء والأرض في الفرح برمضان، فعن أبي هريرة - كما في البخاري - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل شهر رمضان فُتِحَتْ أبواب السماء، وغُلِّقت أبواب جهنم، وسُلْسِلَت الشياطين» وفي رواية أخرى لأبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا جاء

رمضان فُتِّحَت أبواب الجنة، وغُلِّقت أبواب النار، وصُفِّدَتْ الشياطين».

وما أكثر فرح المسلم في هذا الشهر الكريم، ومن هذا الفرح ما يتجدد كل يوم كلما خفق قلبه أو تحرك بذكر الله. وبخاصة الفرحتان اللتان ذكرهما الرسول صلى الله عليه وسلم إذ قال: «للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه» متفق عليه.

وما تنتهي أسباب فرح المسلم ودواعيه التي تتجدد، فما يكاد يختم رمضان بفيض زخَّار من الفرح حتى يستقبل عيد الفطر المبارك بخضم من البهجة والحبور اللذين يتجددان بأشهر الحج، وهكذا يكون المسلم في عرس دائم من الفرح. يصحبه منذ أن يولد حتى يودع الحياة إذا كان من الصالحين.

ختام رمضان

ورد في أحاديث معدودات لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن الشهر تسع وعشرون، ويكون ثلاثين، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الشهر تسع وعشرون ليلة».

وعن سيدتنا أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها - رواية البخاري - أن النبي صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه شهراً، فلما مضى تسعة وعشرون يوماً غدا - أو راح - فقيل له: إنك حلفت ألا تدخل شهراً، فقال: «إن الشهر يكون تسعة وعشرين يوماً».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته. فإن غُبِّيَ عليكم فأكملوا عدَّة شعبان ثلاثين».

فالشهر القمري تسع وعشرون، ويكون ثلاثين، وها نحن

أولاء نستقبل ليلة التاسع والعشرين من رمضان نختم بها ليالي هذا الشهر الكريم، فإن كان تسعاً وعشرين كانت الليلة الخاتمة، وإلا اتممنا ثلاثين.

وسواء أكان الشهر تسعاً وعشرين أم ثلاثين فالمثوبة في هذا الشهر ثرارة كغيث الشتاء بل أكثر.

فإذا كان تسعاً وعشرين فهو تام، لأنه يكون من هذا العدد كاملاً، وكذلك إذا كان ثلاثين، كلاهما تام في العدد وفي الثواب، وفي صحيح البخاري في «باب شهرا عيد لا ينقصان» عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «شهران لا ينقصان، شهرا عيد: رمضان وذو الحجة».

وكثرت أقوال شراح الحديث في تفسير هذا الحديث، وذكر صاحب «فتح الباري» وغيره مثل الصغاني بعض تلك الأقوال التي منها: إن عدة أيام كل من هذين الشهرين: رمضان وذي الحجة ثلاثون من غير نقص.

وقد رد العلماء هذا القول، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صام تسعة وعشرين وصام في بعض السنين ثلاثين، وإن كان أكثر ما صام تسعة وعشرين.

وذهب بعضهم إلى أن سبب نفي النقصان أن أحدهما إذا كان ناقصاً كان الآخر تاماً، ولا يمكن حسب ما ذهبوا إليه أن يكون الشهران في سنة واحدة ناقصين، فإن كان أحدهما ناقصاً كان الآخر تاماً.

وهذا أيضاً مردود، رده العلماء، لأن الشهرين قد يأتيان ناقصين في عام واحد.

ولا ضرورة لسرد بقية الأقوال، وقد قال الزين بن المنير[1]: «لا يخلو شيء من هذه الأقوال عن الاعتراض، وأقربها أن المراد أن النقص الحسيَّ باعتبار العدد ينجبر بأن كلاً منهما شهر عيد عظيم، فلا ينبغي وصفهما بالنقصان، بخلاف غيرهما من الشهور».

ويعقب ابن حجر على قول ابن المنير بقوله: «وحاصله يرجع إلى تأييد قول إسحاق» وإسحاق هو ابن راهويه الذي يقول - كما ذكر ابن حجر نفسه - : «لا ينقصان في الفضيلة إن كانا تسعة وعشرين أو ثلاثين» ويقول إسحاق أيضاً: «وإن كان ناقصاً فهو تام» وكذلك قال آخرون.

وكان تعدد الأقوال وكثرتها واضطراب بعضها بسبب ما

---

(١) فتح الباري: ٤/١٢٥.

فهموا أن الشهر إذا كان ٢٩ فناقص، فإذا كان ٣٠ فتام، مع أن الشهر في الحالين تام. وليس بناقص.

والشهر القمري: مدة من الزمان من أول ظهور الهلال حتى سراره والسِّرار (بكسر السين): آخر ليلة في الشهر، ويبدأ أوله بإهلال الهلال، وينتهي بسراره، ويستغرق دورانه حول نفسه ٢٧,٣٢ يوماً، ولكي يعود القمر إلى البداية يحتاج إلى يومين وخُمس يوم تقريباً، وإذا أردنا الدقة في الحساب: يحتاج إلى ٢,٢١ يومين، وعلى ذلك يكون مجموع الشهر ٢٩,٥٣ يوماً.

ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: «الشهر تسعة وعشرون» فإذا كان رمضان تسعة وعشرين يوماً فهو تام لا نقص فيه، مثله مثل سائر الشهور، فإذا كان ثلاثين يوماً فهو تام أيضاً.

وكلا الشهرين الكريمين شهر عظيم وعريض، فإذا اتفق رمضان أو ذو الحجة مع غيره في الطول فإنه مختلف عنه في العرض، ولهذا نجد كلا منهما شهراً غنياً كل الغنى؛ فليلة في رمضان خير من ألف شهر، وعمرة فيه تعدل حجة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبواب السماء والجنة مفتحة طول أيامه ولياليه.

وأما شهر ذي الحجة فهو أيضاً شهر غني عريض زاخر بالمزايا والمكرمات، وإن فيه ليوماً هو أفضل الأيام طراً، إنه يوم التاسع من ذي الحجة، يوم عرفة، تضاف إليه أيام أخرى ذات عز وسؤدد.

قال سيدنا سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم: « ما من أيام عند الله أفضل من عشر ذي الحجة » فقال رجل: هنَّ أفضل أم من عدتهن جهاد في سبيل الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: « هن أفضلُ من عدتهن جهاد في سبيل الله، وما من يومٍ أفضلُ عند الله من يوم عرفة، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهي بأهل الأرض أهلَ السماء فيقول: انظروا إلى عبادي جاءوني شُعْثاً[٢] غُبْرا[٣] ضاحين[٤]، جاءوا من كل فج عميق يرجون رحمتي ولم يروا عذابي، فلم يُرَ يومٌ أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة ».

وإذا كان هذا الشهران الكريمان قد ازدحما بأعمال البر والخير من عباد الله الصائمين والعمار والحجاج والزوار فإنهما قد فاضا بكرم الله فيضاً لا مثيل له إذ أغدق الله على عباده

---

(٢) الشُّعْث، جمع أشعث: من اتسخ رأسه وبدنه.
(٣) الغُبْر، جمع أغبر: من أصابه الغبار.
(٤) ضاحين، جمع ضاح، وهو من برز للشمس وأصابه حرها.

في شهر رمضان الغفران والرحمة والعتق، كما أغدقهن في شهر الحج.

وإذا أعتق الإنسان عبده فلا يحق له أن يعيده مرة أخرى إلى العبودية فإن الله تبارك وتعالى لا يعيد إلى النار عباده الذين أعتقهم منها فضلاً منه وكرماً.

وما أكثر كرمَ الله على الصائمين، فقد بلغ فيضه حداً لا يتصوره خيال بشر. ومن هذا الفيض إرباء الحسنة عندما تنزل في رحاب الله، فقد تكون بعشر أمثالها، والله يضاعف لمن يشاء حتى تصل إلى سبعمئة ضعف، وتجب التفرقة بين المثل والضعف، وإذا أريد تضعيف الواحد سبعمئة ضعف فإن الناتج يكون واحداً على يمينه مئات الأصفار، وهذا رقم خيالي ممعن في الخيال، لا يمكن أن يقرأ ولا يمكن أن يكتب، لأنه يتجاوز الديشليون بديشليونات المرات.

ومع هذا فمثوبة الصائم أعظم، لأن الصوم الذي صامه لله، فهو الذي يجزي به، وإن هذا الجزاء الأوفى في علم الله.

فهنيئاً لكم أيها الصائمون بصومكم، وكل ختام رمضان وأنتم بخير.

عيد الفطر

العيد: كل حالة تعاود الإنسان، أو ما يعاود مرة بعد أخرى، وخص في شريعة الإسلام بعيد الفطر وعيد النحر، ولما كان ذلك اليوم مجعولاً للسرور في الشريعة كما نبه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «أيام أكل وشرب وبِعَالٍ» والبعال (بكسر الباء) في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: اتصال الرجل بامرأته أو ملاعبته إياها، أو المباشرة، بل كلهن في البعال.

واستعمل العيد في كل يوم فيه مسرة كما قال بعض اللغويين.

وعرف العيد في جميع الديانات، بل هو ضرورة اجتماعية، إذ ما من جماعة أو مجتمع إلا اجتمع اهله على فرح.

وهناك أعياد دينية وأعياد دنيوية مثل الأعياد

الوطنية والقومية، أما الأعياد الدينية في الإسلام اثنان وليس غَيْرُ، هما عيد الفطر وعيد الأضحى.

وورد العيد في القرآن الكريم مرة واحدة في آخر سورة المائدة في قصة سيدنا عيسى والحواريين، قال الله عز وجل: ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين● قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صَدَقْتَنا ونكون عليها من الشاهدين● قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين● قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾.

وليس كل اجتماع أو احتفال في مناسبة بهيجة عيداً، وإن كان الناس اصطلحوا على تسمية اجتماع الأسرة أو بعض الأطفال في مناسبة سعيدة عيداً مثل عيد ميلاد أو غيره، بل العيد يجب أن تتوافر له أشياء حتى تكون التسمية صحيحة، ومن هذه أن يتكرر عَوْدُه في كل عام، لأن الأساس في التسمية أن يعوده ولهذا يقول بعض المُعَيِّدين لبعض: عدتم لأمثاله.

ويجب أن تشترك الأمة كلها في اجتماع بهجة وسرور، فإذا اجتمعت في حزن لا يسمى هذا الاجتماع عيداً.

ويقترن بالعيد الزينة في الملبس والمسكن والمأكل والمشرب، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس في العيدين أجمل ثيابه، وكانت له حلة يلبسها لهما، وكان له بُرْدان أخضران. وكان يلبس في الأعياد برداً أحمر ولكنه ليس أحمر خالصاً مصمتاً (أي سادة بلغتنا العامية) بل كانت به خطوط حُمْرٌ، فوصف بأنه أحمر باعتبار ما فيه من ذلك[1].

ومن ضرورات العيد الأكل والشرب والوفرة فيهما، ويؤكد ذلك في مفهوم العيد ما جاء في القرآن الكريم في قصة عيسى والحواريين، فاقترن العيد بالطعام، بل كانت وفرته وفخارته على المائدة مدعاة لأن تكون لهم عيداً.

وإذا كان من الميسور في عيد الأضحى وفرة اللحوم من الأضاحي حتى يشارك الفقراءُ الأغنياءَ في الطعام والشراب فإن الإسلام جعل عيد الفطر أيضاً عيد سعة ونعمة لا تقتصران على الأغنياء بل يشاركهم فيهما الفقراء بما يُعْطَوْن

---

(١) زاد المعاد ٤٤١/١ طبعة بيروت.

من زكاة الفطر الواجب إخراجها على كل مسلم قادر عليه، وعلى الزكاة المقررة على الأموال. وعلى الكفارات والصدقات والهدايا والهبات.

ويلاحظ في عيدي الإسلام الفريدين فيه أن كلاً منهما يأتي عقيب جهد مبذول وفريضة تتطلب صبراً وطاعة خالصة، فعيد الفطر يعقب شهر الصوم الذي هو امتحان من الله لعبده على السمع والطاعة فيرضى بأن يكبِّل إرادته وحريته وشهوته اللاتي لا تغالب، ويرضى بأن يغير عاداته ويحتمل من التكاليف ما لو لم يكن مصدره خالقه الذي لا يعبد سواه لما رضي بكل ذلك طائعاً مختاراً.

وبعد أن صام المسلمون شهراً كاملاً أكرمهم الله بعد ختمه بعيد تشترك الأمة كلها في الابتهاج به وإعلان الفرحة فيه.

وإن المسلمين لجديرون حقاً بهذا العيد السعيد ثمرة الطاعة فيتبادلون التهنئة التي تعد من عاجل المثوبة، مبتهلين إليه سبحانه وتعالى أن يجعل الآخرة خيراً من الأولى.

وبعد التهنئة بعيد الفطر المبارك الذي أنعم الله به على عباده المؤمنين تبقى كلمة لا بد منها تتمة لمبحث العيد.

كان العيد في منشئه أرضياً، ولهذا كانت البهجة به ملتصقة بالأرض، فكان العيد نعيماً للجسد، وفرة في الطعام مع تنويعه، وكله من الأرض، والجسد نفسه من الأرض، يقول الله تعالى: ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً● ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾(٢).

هكذا كان العيد من الأرض وإلى الأرض، لأن الوثنية مهما ارتفعت فمن الأرض مصدرها وإليها معادها، فالأعياد في الديانات - إلا الإسلام - أعياد مادية جسدية أرضية، أكل وشرب وبهجة مادية لتحقق مطالب جسدية.

أما العيد الإسلامي فتلتقي فيه الأرض والسماء، آدم من الأرض ولكن الله عز وجل نفخ فيه من روحه: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون● فإذا سوَّيته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾(٣).

آدم من الأرض، ولكن، عندما نفخ الله فيه من روحه ارتفع إلى السماء. ولذلك يلتقي في المؤمن الصالح الأرض والسماء، والجسد والروح.

---

(٢) سورة نوح: ١٧ - ١٨.

(٣) سورة الحجر: ٢٨ - ٢٩.

فليس العيد الإسلامي مقصوراً على مطالب الجسد وحده يكتفي بالطعام والشراب، ويشتغل بها وبالفرح الأرضي عن مطالب الروح، وطبيعي أن يبدأ من الأرض عندما يراد العروج إلى السماء.

إن العيد فرح في الأرض والسماء لأنه جاء عقب فرح الصائمين وقت الإفطار، وهو فرح الأرض، وأما فرح السماء فيتجلى في تَفَتُّح أبوابها كما جاء في حديث محمد عليه صلوات الله وسلامه.

ويتضح المعنى أكثر من قول الله تعالى: ﴿والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافَّ فإذا وجبتْ جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون● لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن ينالـه التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين﴾[٤].

ففي هذه الدماء واللحوم خير، ويتجلى الخير في السعة والرخاء المقرونين بالتقوى التي تجعل السماء والأرض تلتقيان في الفرح بطاعة الله التي يعقبها العيد السعيد، جعله الله عيداً مباركاً متجدداً بما يرضي الله.

وكل عام والمسلمون جميعاً بخير.

---

(٤) سورة الحج: ٣٦ - ٣٧.

شهادة مردودة وفتوى مقبولة

كنا نسمع ممن يكبروننا بمكة المكرمة حرسها الله أن الناس كانوا يَتَحَرَّوْنَ هلال رمضان بعد اليوم التاسع والعشرين من شعبان، فإذا رجل يقبل على قصر الشريف عون الرفيق أمير مكة في ذلك الزمان يريد أن يشهد أنه رأى الهلال، وبينا هو في طريقه إلى الشريف الذي كان بصدر المجلس عثر الشاهد بجرة كبيرة كانت فيه فسقط فسأله الشريف: أجئت تشهد أنك رأيت هلال رمضان قبل قليل حتى يصوم الناس غداً؟ فأجاب: نعم.

وهنا صاح الشريف في وجهه: ويلك! إذا كنت لم تر الجرة الكبيرة تحت عينيك وهي في حجم الهلال مئة مرة فتتعثر بها وتسقط على الأرض، أتستطيع أن ترى في السماء الهلال الذي لا يكاد يبين لأنه في حجم الاصبع وعلى هذا البعد! أغرب عن وجهي أيها الكذوب قبحك الله.

وهذه النادرة كانت شائعة في مكة وجدة والطائف

يتناقلها الناس في هذه المدن إلى ما قبل أربعين سنة. ويؤكدها بعض الرواة.

وسمعت نادرة أخرى ممن كانوا يكبروننا أن رجلاً من أهل جدة سأل مفتي مكة بمجلس الشريف عون قائلاً: ما قول مولانا دام فضله في الشمس تغرب في مدينة جدة فينطلق مدفع الإفطار إيذاناً بغروب الشمس فيفطر أهلها، ولكنهم لا يسمعون المؤذن إلا بعد بضع دقائق، وذهب المؤذن إلى أن إفطار الناس على المدفع غير جائز، وإن إفطار من أفطروا عليه باطل. ويجب أن يقضوا هذا اليوم.

واختلف الناس وانقسموا فريقين، انضم إلى أحدهما المؤذن الذي قرر أن «الطوبجي» الذي أطلق المدفع كان على خطأ. لأنه لما كان على الأرض لم يرَ الشمس فأطلق المدفع فأفطر الناس على ذمته، والفريق الأكثر عدداً كان مع الطوبجي (وتنطلق في مدن الحجاز: الطُّبَّجي، بضم الطاء وتشديد الباء المفتوحة).

ويقال: إن المفتي أفتى بأن إفطار أهل جدة صحيح، لأن الشمس غربت عندهم، وأما الذي كان على المنارة فلا يصح أن يفطر، لأن الشمس لم تغرب عنده، فعليه ألا يفطر إلا بعد غروبها وإن كان سمع مدفع الغروب، فالمطالع

والمغارب تختلف، وكل قوم مقيدون بمطالعهم ومشارقهم.

وكنت أحسب أن النادرتين صحيحتا النسبة حتى قرأت في «يوميات» صديقنا الأستاذ عباس محمود العقاد التي تنشر في جريدة «أخبار اليوم» بأحد أعدادها الصادرة في ٨/ ٥/ ١٩٥٤م والمعاد نشرها في الجزء الثالث من «يوميات» بصفحة ٦٢٠ - ٦٢٣ إذ ذكر الأستاذ العقاد الحادثتين منسوبتين إلى غير الشريف عون ومفتي مكة.

يقول الأستاذ العقاد: «ونذكر لهذه المناسبة أن رئاسة القضاء الشرعي بمصر كانت موكولة إلى قاضٍ تركي من قبل الدولة العثمانية التي كانت صاحبة السيادة على مصر إلى أيام الحرب العالمية الأولى، وكان هذا القاضي يجلس في «بيت القاضي» عند نهاية شعبان لإثبات رؤية رمضان، وقيل له أن يستدعي رجلاً فلكياً ممن كانوا يصدرون التقاويم السنوية بالحساب القديم، وكان في الحساب ذلك الفرق اليسير الذي أشرنا إليه، فاستدعاه من باب التحقيق واستيفاء الشهادة، ولكنه كان لسوء الحظ ضعيف النظر، وكان قد دعي على عجل فأقبل مهرولاً في اللحظة الأخيرة، وهو لا يصدق أذنيه، ولم يكن في الواقع يصدق عينيه حين يزعم رؤية... بل كانت المسألة عنده مسألة تقدير وتقويم.

« واصطدم المسكين بالنارجيلة التي كان القاضي الكبير مولعاً بتدخينها، وأعجله عن رؤيتها أنه أقبل على يد القاضي المهيب يصافحه ويحرص على تحيته فما راعه إلا صيحة عالية من صاحبنا قبل أن يفتح فمه بتحية أو شهادة: أنت لم تبصر أمامك جذوة النار على مدى ذراع واحدة وتريد أن تشهد أمامنا برؤية الهلال في السماء!.

وبطلت شهادة الفلكي الحسير قبل أن تسمع ».

وليس بممتنع تكرار حادثة فتقع مرة هنا ومرة هناك. كما أن الناس ينسبون إلى الحكام والمشاهير ما لم يقع منهم، وقد نسبت إلى الشريف عون غرائب لم يكن مصدرها وإن كان - حقاً - صاحب غرائب كثيرة.

ويجوز أن تكون هذه الحادثة لم تقع منه، ولكنهم نسبوها إليه تندراً به، فقد كان صاحب مظالم كما ذكر ابراهيم رفعت باشا في كتابه « مرآة الحرمين » ومحمد لبيب البتانوني في كتابه « الرحلة الحجازية » وكما سمعنا من أناس عاصروه ورأوا كثيراً من غرائبه.

ومن نسبوا إليه حادثة شاهد إثبات هلال رمضان ذكروا أنه تعثر بجرة كبيرة كانت في مجلس الشريف، وما ضرورة وجودها فيه، بل لا ضرورة. وكان بوسع الرواة أن

يذكروا « الشيشة » أو أي تحفة تأخذ مكان الجرة التي لا يليق وجودها بمجلس الشريف الأمير الحاكم.

وأما الفتوى فقد تكررت فذُكِرَت بالحجاز على أن سببها كان بجدة، وبمصر على أنه بالاسكندرية.

وها هي ذي الحادثة كما ذكرها الأستاذ العقاد في « يومياته » التي سبق الشاهد منها.

يقول الأستاذ العقاد: « ومن الفخر للإسلام أنه جعل للمسئولية الفردية حكمها القائم إلى جانب سلطان الإمام المطاع، فكلٌّ مسئول أمام ضميره عن صلاته وصيامه؛ وعن فرائضه وأحكامه، وبلغ من ذلك في رواية أبي عبد الله بن أبي موسى «أنه استفتى رجل اسكندري أن الشمس بها، ومن كان على منارتها يراها طالعة، فقال: يحل لأهل البلد الفطر، ولا يحل لمن على منارتها، فالحاصل لكل قوم مطلعه ومغربه وزواله » وهذه التبعات الفردية هي فخر الإسلام بين الأديان، فلا تلزم الفريضة بأمر الإمام إذا رأت عيناه غير ما رآه ».

أما فتوى مفتي مكة المكرمة فغير مدونة في كتاب، ولم

يوضح اسم المفتي وما نستطيع أن نجزم بوقوع الحادثة التي كان بسببها الاستفتاء، وإن كان تكرر الوقوع ليس بممتنع، فما أكثر ما تتكرر الحوادث كما تتداعى المعاني.

رمضان في مكة المكرمة

كل أتباع الديانات المعاصرة كاليهودية والمسيحية يصومون كما نصوم نحن المسلمين، وإن كان صيامنا مختلفاً عن صيام الآخرين.

ولا يُرَى أي أثر في صيام غير المسلمين على المجتمع، فأيام الصيام وغيرها سواء عندهم، أما في مجتمع الإسلام فأثر الصيام بارز فيه، فلا ترى في النهار مطاعم ومقاهي مفتوحة تستقبل أحداً، بل لا تجد في كل الشوارع والأسواق من يأكل أو يدخن، كل الناس ممسك عن الطعام والشراب حتى الأطفال.

وأظهر ما يكون من أثر الصوم في مجتمعات الإسلام من أثر على المجتمع المكي والمجتمع المدني، لأنهما يقعان في بلد حرام، ففي مكة بيت الله، وفي المدينة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كانت الدكاكين فيهما تفتح في الصباح إلا قرب الظهر، إلا دكاكين اللحوم والخضراوات

فكانت تفتح بعد مضي ثلث النهار.

وعندما كانت المدارس في الحجاز على فترتين: فترة الصباح إلى الظهر، وينصرف التلامذة إلى الغداء (بالدال المهملة) ثم يعودون لينصرفوا إلى بيوتهم بعد صلاة العصر كانت الدراسة في رمضان تختلف عن شهور الفطر، فقد كانت الدراسة من الساعة الثالثة صباحاً إلى الساعة الثامنة بعد الظهر - بالتوقيت الغروبي فما كنا نعرف غيره - وهذا بسبب الصوم تخفيفاً على المدرسين والتلامذة البالغين.

وإكراماً لرمضان ما كان باعة اللوز والحمص والبليلة والمقلية يحضرون إلى المدارس ليبيعوا التلامذة ما لديهم من هذه الأصناف، فكان الأطفال من التلامذة يُحْرَمُونها في الفُسَحِ، وما كانوا بساخطين، بل كانوا راضين، بل كانوا سعداء بهذا المنع. لأنهم يرون أنفسهم أكفاء الكبار، وأهلاً للصبر والاحتمال.

وكانت أسواق اللحم والخضراوات مزدحمة يستعدون لمائدة الإفطار بما لذ وطاب من الأشربة والأطعمة.

وقسم أهل مدن الحجاز شهر رمضان أثلاثاً: الثلث الأول للجزارين، والثلث الثاني للقماشين، والثلث الثالث للخياطين، وإن كانت سوق الجزارين رائجة طول الشهر

كله .وحقاً كان الثلث الثاني لباعة الأقمشة ،فتبــدأ سوقهم من اليوم السابع لرمضان، فإذا جاءت ليلة الخامس والعشرين بدأت من جديد سوق القماشين وباعة « الكوافي » و « الأحاريم »[1] وباعة « العُقُل ».

والكوافي، جمع كفية، وأصلها كوفية، أسقطوا في النطق حرف المد، فصارت كفية (بضم الكاف وكسر الفاء وتشديد الياء المفتوحة) وهي غطاء الرأس على أنواع.

نوع يصنعه الجاويون (الأندنوسيون) وهو « قماش » أبيض ناصع على شكل دائرة عليه ما يشبه القبة، وتغسل بالنشا ثم تكوى لتبقى قائمة على الرأس.

فلابسها من الشبان يحمل على كتفه قطعة قماش مربعة مطوية على شكل مستطيل، يسبل نصفه إلى الخلف على الظهر، ونصفه الآخر إلى الأمام على الصدر، وهذه القطعة تسمى الإحرام، ويكون مطرزاً تارة، وأبيض بدون تطريز، فإذا كان مطرزاً كان من حرير طبيعي أو صناعي، وأما غير المطرز فيكون من حرير أو من قطن،

(١) الأحاريم، جمع إحرام، وهو قطعة مربعة من نسيج يختلف مقاس كل إحرام بالنسبة لمراحل العمر، ويطوى طية واحدة فيتحول على شكل مثلث، ويوضع على الرأس، ويسدل على جانبيه.

ومن الرجال من كان يعتم بالإحرام المطرز.

وهناك نوع من الكفية يصنعه نساء مكة تعلمنه من نساء بخارى، وهو خيوط مبرومة متشابكة طولاً وعرضاً، وتوضع هذه الكفية على الرأس، ويبسط عليها الإحرام الأبيض الناصع المكوي.

والنوع الآخر يسمى الكفية المقصصة، وهي غطاء الرأس مكون من ألف قطعة صغيرة يخاط بعضها إلى بعض، ويتكون من قطعتين: قطعة دائرية تسمى «الدائر» والأخرى قرص دائري كالبدر، إلا أنه مفرغ الوسط على شكل دائرة يختلف قطرها، ويوضع على قالب من الصفيح مستدير، وينسج على هذه الدائرة التي بوسط القرص بالحرير الطبيعي الأبيض قرصاً آخر مزخرفاً رائع المنظر، ويكون القرص الأكبر هالة على القرص الأبيض الناصع، ويخاط القرص على الدائر ثم يوضع الدائر وقرصه على قالب متقن الصنع من القش مستورد من بلاد جاوا (إندنوسيا) بعد أن يلطخ بالغرا أو بالصمغ، ثم توضع الكفية على هذا القالب فتثبت عليه، فإذا جف الغرا خيطت بداخله بطانة من نسج الحرير الطبيعي أو الصناعي ثم يخاط من البطانة شريحة طويلة من جلد لئلا يصيب

البطانَة العرقُ، ثم يلف على الدائر عمامة من نسج خفيف يقال له: الشاش.

وكان في مكة أناس متخصصون برعوا في لف هذه العمامة وفيهم أربعة ملوك هم: الملك الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق، وابنه الملك الشريف علي بن الحسين الذي تولى ملك الحجاز بعد أبيه ثم «تنازل» والشريف الملك عبد الله بن الحسين ملك شرقي الأردن، والشريف الملك فيصل بن الحسين ملك العراق رحمهم الله جميعاً.

والكفية «المقصصة» التي تتكون من ألف قطعة صغيرة، لم تكن هذه القطع من لون واحد، بل كانت تتكون من أربعة ألوان، هي: الأحمر والأصفر والأخضر والأسود، وكان هناك نوع تتكون قطعه الألف من لونين: أبيض وأسود.

وكانت الكفية نفسها نوعين بالنسبة للنسج المقصوص، نوع من نسج الحرير الطبيعي، وآخر من القطن. وطبيعي أن يكون ما صنع من الحرير أغلى.

وما كانت هذه العمامة الألفية لتلبس إلا على جبة، وكانت زي الحكام والمفتين والقضاة وعلية الأمة.

وأما في الأعياد في أيام حكم الهاشميين وأوائل حكم الملك عبد العزيز بن سعود فكان الناس حتى الأطفال يلبسون العمائم الألفية حتى زالت هي والجبة من المجتمع السعودي، وإن كانت الحرفة باقية للحجاج، إذ ما يزال كثير من حجاج إندونوسيا ونيجيريا والسنغال يرون الحصول على عمامة ألفية أمارة على أداء مناسك الحج والعمرة والزيارة، يلبسونها في بلادهم في صلاة الجمعة والعيدين.

وبعد أن دالت دولة العمامة وسادت دولة العباءة في هذه الأيام تغيرت عادات في مجتمع الحجاز، إلا أن عادات كثيرة ما تزال كما كانت، وتبع العباءة العقالُ، وهو حبل من الحرير أو القطن وأغلبه من الصوف، يوضع على «الإحرام» الذي يغطي الرأس ويسبل على جانبيه ليثبته، ولعله مأخوذ من عقال البعير حتى تطور فصار عقالاً يأخذ مكانه من رأس الرجال.

وكان سكان مدن الحجاز مترفين يتفاوتون في الترف، وهو تفاوت يقع بين الأغنياء والففراء، وإن كان فقراء مدن الحجاز مترفين، فأكمام الثياب والسراويل مطرزة بالحرير، وكذلك «تكك» السراويل.

وكانت ليالي رمضان وهاجة ساطعة بالأنوار مع أنه في

تلك الأيام لم تكن كهرباء، ومع هذا كانت المصابيح قوية وهاجة.

وإذا كان أثر رمضان بارزاً في مجتمع مكة وكل مدن الحجاز نهاراً حيث لا تشتغل المطاعم والمقاهي، ولا يغادر الناس بيوتهم لشراء حاجات المطبخ من لحوم وخضراوات وفواكه إلا بعد أن يمضي من النهار ثلثه، لأنهم يسهرون حتى يَسَّحُروا ثم ينتظرون أذان الفجر ثم يؤدون صلاته، ثم ينامون، ثم يستيقظون لشراء حاجات بيوتهم، ثم يمضي أصحاب الوظائف والأعمال إلى أعمالهم فإن هذا الأثر مشهود في كل أقطار المسلمين، فلا ترى بها مطاعم ومقاهي مفتوحة نهاراً، وإن كانت مدن الحجاز تسهر ليلاً.

ويختلف وقت العمل في البلدان الإسلامية، فيحضر الموظفون والعمال إلى أعمالهم متأخرين صباحاً، ويغادرونها مبكرين.

أما في المملكة السعودية فيختلف وقت العمل في رمضان عن غيره، فإذا كانت الإدارات مما تعمل نهاراً فيبدأ في الساعة الرابعة صباحاً وينتهي الساعة الثامنة بعد الظهر بالتوقيت العربي أي الغروبي، ثم يعودون إلى بيوتهم ليهجعوا ساعة أو أكثر ثم يستيقظون.

وكل الناس ببلادنا يقضون فترة ما قبل المغرب في قراءة القرآن، ثم يمضي من لديهم حاجة في السوق إليها لشراء بعض الأطعمة الجاهزة كالفول وغيره.

أما ربات البيوت فيمضين بعد الظهر إلى المطبخ يُعْدِدْن مائدة رمضان الحافلة بنعيم الله.

وأهل مدن الحجاز يفطرون على التمر والماء - إلا أهل مكة فمع تمرهم ماء زمزم - ثم ينهضون إلى الصلاة، يؤم الأسرة كبيرها، ثم ينفتلون إلى المائدة ثم إلى الشاي.

وأهل المملكة السعودية يختلفون عن كل البلدان في توقيت صلاة العشاء، إذ يؤذن لها بعد أذان المغرب بساعتين، أما في غير رمضان فبين أذان المغرب وأذان العشاء ساعة ونصف ساعة، وتأخير أذان العشاء في رمضان نصف ساعة إعطاء الصائمين فرصة للراحة بعد الإفطار والتهيؤ في طمأنينة لصلاة العشاء فريضة وسنة فالتراويح فالوتر.

وأكرم الله أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة حرسهما الله وزادهما شرفاً وتعظيماً وحرس أهلها بما لم يكرم أهل بلد غيرهم، فأهل مكة يمضون إلى المسجد الحرام قبيل المغرب يطوفون ويقرأون منتظرين أذان المغرب ليفطروا بين يدي

الكعبة المشرفة.

وأهل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم يصنعون ما يصنع أهل مكة إلا الطواف، ويفطرون بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعضهم في الروضة المشرفة بين المنبر العظيم وقبره الشريف.

وصلاة بمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بألف صلاة في غيره إلا المسجد الحرام فالصلاة فيه بمئة ألف صلاة في غيره. وهنيئاً لأهل هذين البلدين المقدسين بهذه المكرمة الإلَهية، ولعلهم يصلحون أنفسهم ليكونوا أهلاً لهذه المكرمة الفريدة العظيمة.

مُسحِّر رمضان والسحور بمكة

كانوا يقولون في مكة المكرمة حرسها الله وفي مدن الحجاز الأخرى المُسَحِّر - بصيغة اسم الفاعل - وفي مصر: المُسَحِّراتي، ويجوز أن يقال مثل ذلك في أقطار العروبة، ويقصدون بالمسحر أو المسحراتي: الرجل الذي يطوف بالبيوت في المدن والقرى في ليالي رمضان في موعد السحور يوقظ النائمين ليتناولوا السحور، وهو الطعام الذي يأكلونه قبيل الفجر ثم يمسكون عن كل طعام وشراب حتى تغرب الشمس.

وكان لكل حي بمكة المكرمة مسحره، فإذا كان الحي كبيراً مثل حي المِسْفلة كان له غير واحد من المسحرين.

وكان المسحر يعرف أسماء أرباب الأسر وأسماء أطفال الأسرة الكبيرة الموسرة المشهورة، وينادي رب كل أسرة باسمه أو كنيته، وما كان في عصر أبي وأيامنا الأولى أحد ينادي الآخر بلقبه، بل كان أدب اللياقة في المجتمع كله

يقضي بألا يُنادَى أحدٌ باسمه مجرداً، بل لا بد أن يسبق الاسم عند النداء بألقاب التشريف والتكريم أو بالكنية التي تشعر بالمديح.

وكان المسحر ينادي الناس بكناهم أو بها وبالأسماء مسبوقة بلقب كريم، ولا يقتصر الأمر على النداء، وإنما يتغنى المسحر باسم المنادي وكنيته ولقبه، مضفياً في غنائه على المنادي صفــات حميدة كريمة.

ولم يكن المسحر يغفل الأطفال، بل كان يحتفي بهم ويذكرهم بأسمائهم موصوفة بما يسرهم ويسر والديهم، ويجيبونه بأنهم صحوا للسحور.

ومما أذكره من أناشيد المسحر الذي كان يوقظ أبي قوله:

يا بو الحسنين
يا شيخ عبد الغفور عطار
يا اللي بيتك كله عطر وأنوار
إصْحَ يا نائم، واذكر ربك الدائم

وقصد المسحر بالكنية «يا بو الحسنين» أن لأبي ابنين أكبر أبنائه هما: الحسن والحسين، ولم يكن يقتصر على هذا «التسحير» بل يقول من الكلم الطيب ما يعنُّ له، ويبدأ في

التهنئة بصوته الجميل منذ ليلة السابع والعشرين.

ويحمل المسحر طبلاً يقرعه فيساوق غناءه صوتُ طبله، ومنذ نهار السابع والعشرين وما يبقى من ليالي رمضان وأنهره يجمع «العيدية» من الناس، إما أن يراجعهم في أماكن أعمالهم أو بيوتهم، يعطيه كل بيت بحسب قدرته المالية ومكانته الاجتماعي، كما كان بعض الناس يعطيه زكاة الفطر قبيل فجر يوم العيد.

وأذكر المسحر في أواخر عهد الشريف الملك الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق وكنت طفلاً صغيراً، كما أذكره في أوائل حكم الملك عبد العزيز آل سعود بعد افتتاحه الحجاز، وبقي التسحير حتى سنة ١٣٦٠ هـ في الشارع الذي كنت أسكنه بحينا حي المسفلة، ثم لم أعد أسمع المسحر.

ولم تمنعه السلطة أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع أنها كانت تمنع الطبل إلا طبل المسحرين فقد سكتت عنه،وأخذ المسحرون يختفون من أحيائهم بالتدريج حتى كان مُسحِّرو حي المسفلة آخرهم اختفاء، وكان سببه الموت، إذ كانوا من الشيوخ.

وكان من الناس في مكة والمدينة حرسها الله وفي مدن الحجاز من يؤخرون السحور إلى أن يزاحموا به ما قبيل

الفجر بقليل تأسياً بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

في صحيح الإمام البخاري رحمه الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: «كنت أتسَحَّر في أهلي ثم تكون سرعتي أن أدرك السجود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم».

ولا يكادون يؤخرون السحور بَتّةً عن وقت الإمساك الرسمي الذي يسبق أذان الفجر بعشر دقائق، بل ينتهون من السحور قبل مدفع الإمساك بدقائق أو معه، ومن يأخذه النوم إلى وقت الإمساك تناول بعض الطعام بسرعة وبادر إلى الماء ثم يمسك، وممن يأخذهم النوم فلا يصحو للسحور يصوم بلا سحور.

وينتظر أكثر المتسحرين أذان الفجر ليؤدوا صلاته جماعة إما في بيوتهم أو في مساجد الحي أو في المسجد الحرام، ثم يعودون إلى النوم حتى يحين وقت الخروج إلى العمل.

وكان أهل مكة المكرمة يحرصون على أداء صلواتهم بالمسجد الحرام وبخاصة صلاة الفجر في رمضان أو أيام الجُمَع إلى ما قبل توسعة مكة.

أما في هذه الأيام - أي بعد التوسعة - فلا يقصد أهل مكة جميعاً كما كانوا، لأن شرطة المرور يشتدون مع

الراغبين في الصلاة بين يدي الكعبة المشرفة، ولا يسمحون لهم بوقف سياراتهم حوالى الحرم الشريف، بل كثير من الناس يعدلون عن أداء صلاة الجمعة فيه للسبب نفسه، وما أكثر ما حُرِمْتُ هذه الفضيلة في هذه الأيام، فأنا منذ العاشرة من عمري كنت أصلي في المسجد الحرام أكثر صلواتي، وكان لداتي مثلي.

ومنذ أن أسرفنا في إدخال السيارات إلى مكة، ووسعنا الحرم نفسه وهُدِّمت آلاف البيوت بوسط مكة بسبب توسعتها وقسوة رجال المرور انقطع الآلاف عن الحرم اكتفاء بمساجد الأحياء، وكنت من هؤلاء.

وذات مرة في شهر شعبان من سنتنا هذه (سنة ١٤٠١ هـ) بلغ الحنين والشوق لصلاة الفجر بالحرم الشريف فنزلت بفندق يبعد عنه خطوات حتى حققت مأملي.

وأما السحور فكان أهل مكة جميعاً يُعْنَوْنَ به فيعدِّدون ألوانه، فتحوى مائدته لحماً وأرزاً وخبزاً وخضراوات وفاكهة وحلوى، وكنا نسرف في اختزان الطعام والماء حتى نستطيع مقاومة الجوع والعطش.

موائد رمضان

رمضان شهر البركات والخير، يستعد له المسلمون في كل مكان قبل حلوله استعداداً، ليوفوه حقه من النعمة والوفرة والخصب والثراء والتكريم، ويدخرون له المال بشتى الوسائل حتى تنبسط أياديهم بما يحقق الرغبة ويدني الثمر.

ومن أظهر مظاهر رمضان موائده الحافلة الشهية التي ترتفع عن الضرورة إلى الكمال والخلابة والسحر والفتنة والجمال.

ومن جمال موائده اجتماع الأسرة حولها في ساعة الإفطار ينتظرون الأذان أو المدفع، فإذا سمعوه امتدت الأيدي في شوق إليها والألسنة الصالحة تهتف باسم الله.

إن رمضان يجعل من الشر خيراً، ومن أداة الهدم والتدمير بشرى وعمراناً، فالمدفع الذي ينذر بالشر يصبح أداة بهجة وسرور للمسلم الصائم. والنفوس الشريرة التي

أراد الله لها الخير تصبو إليه في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ورحمة.

ورمضان شهر متفرد بين الشهور جميعها، له خصائصه، وله مظاهره التي لا يشركه فيها شهر سواه.

وهو الشهر الوحيد الذي ذكر في القرآن باسمه دون سائر الشهور، وكان في الجاهلية مقدساً مباركاً حتى سمى «الأصم» لأنه لا تسمع فيه قعقعة السلاح، فهو شهر السلام والمحبة والأمن، ومتى كان الناس في أمان وسلم ومودة كثر البر والخير.

فإذا كان المسلمون جميعاً - أغنياء وفقراء - يفرحون بلقائه لأنه يتيح لهم النعم جميعها فلهم الحق، فالأرواح تصفو، والنفوس تصحو، والأبدان تصح، والمسرات تكثر، ومطالب الروح والجسم تيسر.

وما أكثر الصنوف التي تزدحم بها مائدة شهر رمضان، كالكنافة والقطائف والسمبوسك والفلة والجبنية وأنواع الحساء والكماج والكَيْك والفالوذج والمكرونة وغيرها من الأطايب.

وما تحفل مائدة كحفول مائدة رمضان، ففيها من

المطعوم والمشروب والفواكه والخضراوات ما تضيق به الموائد على سعتها.

ولو أن غريباً غير مسلم حضر مائدة رمضان في بيت فقير لظن أن الرجل يحتفي بأمير، ولو علم أن مائدته كل يوم هكذا لأدركه العجب من هذا الترف والثراء.

وهذا - ولا شك - من بركات شهر رمضان المبارك، فموائد كل يوم من أيامه في كل بيت بمكة المكرمة - حرسها الله - والمدينة المنورة زادها الله شرفاً وتعظيماً وفي سائر المدن السعودية تشبه مائدة محمد بن سليمان عامل الرشيد التي وصفها الشاعر العماني في أرجوزته الرائعة إذ قال:

جـــــــاءوا بفُرْنِيٍّ[1] لهم ملبونِ
بـــات يسقـــى خالــص السمونِ[2]
مصومـــــــع[3] أكـوم ذي غضونِ
قـــد حشيـــت بالسكر المطحونِ
ولونوا مــــا شئـــت من تلوينِ

---

(١) الفرني، واحدته فرنية: وهي خَبزة مسلكة مصعنبة تشوى ثم تروى سمناً ولبناً وسكراً.

(٢) السمون، جمع سمن.

(٣) مصومع، كالصومعة.

من بـــارد الطعـــام والسخـــينِ
ومن شراسيـــف[٤] ومن طُرْدينِ[٥]
ومن هـــلام[٦] ومصيـــص[٧] جونِ
ومن أوز فائـــــق سمـــــينِ
ومن دجـــاج فـــت بالعجـــينِ
فالشحم في الظهور والبطونِ
واتبعوا ذلـــــك بالجوزينِ[٨]
وبالخبيـــص[٩] الرطـب واللوزينِ[١٠]
وفكهوا بعنـــــب وتـــــينِ
والرطـب الازدراد[١١] والهـيرونِ[١٢]

(٤) الشراسيف: قطع اللحم من القص.

(٥) الطردين « بضم الطاء واسكان الراء وكسر الدال »، طعام للأكراد.

(٦) الهلام: مرق الكباج المبرد المصفى من الدهن، أو طعام من لحم عجل بجلده.

(٧) المصيص، حساء الدجاج واللحم

(٨) الجوزين: نوع من الحلوى يعمل بالجوز.

(٩) الخبيص: حلوى تعمل من السمن والتمر في البادية، أما في الحضر فمن الأرز والدبس.

(١٠) اللوزين: حلوى شبه القطائف تؤدم بدهن اللوز.

(١١) الرطب الازدراد: الفالوذج.

(١٢) الهيرون: البَرِّيُّ من التمر والرطب.

هذه المائدة الحافلة تشبه مائدة رمضان في كل بيت - والحمد لله على نعمائه وفضله - وتضاف إليها « السلطات » في لغتنا العامية أو « الكوامخ » المعربة، وهي في الفصحى: الجوارش والقميحة بأنواع مختلفة كما جاءت في وصف ابن المعتز:

أمْتِع بسلة قضبان أتتك وقد
حفت جوانبها الجامات أسطارُ
فيها سكارج أنواع مصففة
حمر وصفر وما فيهن إنكارُ
فيهن كامخ طرخون مبوهرة
وكامخ أحمرُ فيها وتيارُ
فيهن كامخ مرزنجوش قابله
من القرنفل نوع منه مختارُ
وكامخ الدار صيني فليس له
في الطعم شبه ولا في لونه عارُ

وندر بمكة المكرمة ألا تجد بمائدة صائم « السمبوسك » وهو رقاق يحشى لحماً مفريًّا (مفروماً) وبعض توابل وبعض أحرار البقول كالشبث والبقدونس، كما يضع بعضنا مع الحشو قطعاً صغيرة من البيض المسلوق والصنوبر.

وما أدرى ما أصل « السمبوسك » لغوياً؟ ومن أين أخذناها؟ وما طريقة وضعها إذا كان وضعها من أهل هذا البلد؟ ولكن نجد في اللغة العربية كلمة استعملت فيما نسميه « السمبوسك » هي « المُيَسَّر » ومعناها في المعجمات التي ذكرته: « الرقاق الملفوف باللحم » قال شاعر:

أَكْلُ الميسَّرِ من رأسين يا سكنى
لا يستطاع ولا سيفان في غمد

و « السمبوسك » مثلث الشكل، وعلى أشكال أُخَرَ، وأحسب أن الميسر هو « السمبوسك » والدليل أن الشاعر يقول: إن أكل الميسر من رأسين غير مستطاع.

وهناك كلمة معربة للسمبوسك ذكرتها المعاجم وهي « البزماورد » وذكر المنجد: السمبوسك والسمبومق.

و « المهلبية » و « الطَّطْلِيُّ » من أنواع الحلوى المحببة التي لا تخلو منها موائد الإفطار في رمضان، ويقول بعض الظرفاء: إن المهلبية منحوته من « مَهْلاً بِيَّ » تقولها هذه الحلوى لآكليها لرقتها وحلاوتها وجمالها، ويزعم بعضهم أنها منسوبة إلى المهلب بن أبي صفرة.

و « الططلي » تركية كما أظن، وهي من فصيلة المهلبية

وتزيد عليها أن المح - وهو صفار البيض - يدخل فيها.

وكلتاهما تصنع من «الحليب» والدقيق، إلا «الططلي» فدقيقها غير دقيق المهلبية الذي هو من الأرز المصري، أما دقيق الططلي فهو دقيق يرد من الخارج واسمه الإفرنجي «كستر بودر» أي دقيق الكستر.

والاسم العربي الذي يصلح للمهلبية هو «الرغيدة» وهي في العربية: اللبن الحليب يذر عليه الدقيق بعد ما يغلي فيختلط، إنه يصلح أن يطلق على المهلبية وإن كان حليبها لا يغلي، بل يخلط به الدقيق حتى يذوب فيه ثم يغلى على نار هادئة.

و «الكَيْكُ» - على وزن بَيْض - عربية لفظاً ومعنى، وإن كان أبناء هذا العصر زادوا في الإضافة إليه أشياء ما كانت تضاف في الزمن القديم و «البريك» هو من أنواع الكيك، وهو صنوف.

ويُعْنَى الناس في مكة المكرمة - حرسها الله - بالحساء ويفتنون في صنعه وألوانه، فعندهم حساء الحنطة وحساء الخضراوات والدجاج.

ويتناوله الصائم بعد أن يفطر على التمر وزمزم، وإنهم

ليفتنون في التمر ويختارون أطايبه، فيخلونه من النواة ويضعون بدلها لوزاً أو فستقاً أو غيره، وقد عرفه العرب فسموه « الملوز » على وزن المعظم، وهو التمر المحشو لوزاً.

والحساء ضرورة للصائم في مكة ما تخلو منه مائدته ولو كان فقيراً، وكذلك الأمر بالنسبة لكل مدن الحجاز.

وفي الحديث: أن الحساء يرنو فؤاد السقيم ويسر عن فؤاد الحزين.

ولعل هذا ما يجعلنا حريصين عليه وبخاصة في هذا الشهر الكريم السخي المعطاء.

والحساء مشهور عند العرب قديماً وحديثاً، وعرفوا حساء الدجاج والطيور وسموه « المصوص ».

ومن أعظم ما يحتفل به الصائمون في موائدهم: الألماسية والكنافة والقطايف.

والألماسية نسبة إلى « الألماس » الحجر الكريم النفيس، وسموا هذه الحلواء الألماسية لأنها مثل جوهر الألماس في الصفاء والنقاء.

وتسمى عند الحجازيين « الفالودة » وهي فارسية اسماً ونسبة وصنعاً، وتنطق فيها « بالوذة » ونطق الباء بين الباء

والفاء، وزعم أبو علي الفارسي: أن معناها بالفارسية «الحافظ للدماغ» وعربه العرب فقالوا: فالوذج وفالوذق، ثم وضعوا له اسماء عربية منها: السرطراط، واللمص، والمزعزع، والملوص.

وكانت هذه الحلواء خاصة بموائد الملوك والأغنياء، وما كان غيرهم يجد سبيلاً إليها إلا إذا كان على تلك الموائد الغنية المترفة.

وجاء في العقد الفريد ٢ : ٣٠٧ أن أعرابياً كان على مائدة سليمان بن عبد الملك، فكان يأكل من الفالوذج بنهم وسرعة، فمازحه سليمان قائلاً: أأزيدك منه يا أعرابي فإنه يزيد في الدماغ؟! فرد عليه: كذبوك يا أمير المؤمنين، لو كان ذلك حقاً لكان رأسك مثل رأس البغل.

وعرفته مكة - حرسها الله - في الجاهلية على يد عبد الله بن جُدْعان الملقب بحاسي الذهب، لأنه كان يشرب في إناء ذهبي، وهو الذي أطعمه الناس في مائدة عامة.

كان ابن جدعان على مائدة كسرى، فأعجبه الفالوذج فابتاع غلاماً فارسياً يحسن صنعه، واصطحبه معه عند عودته من فارس إلى الحجاز، واصطحب من «الفالوذج» كثيراً، فلما كان بمكة - شرفها الله - بسط الموائد بالأبطح،

وأعلن في الناس: من يرد الفالوذج فليقبل، فأقبلوا أغنياء وفقراء وفيهم الشاعر أمية بن أبي الصلت، وطعم منه فأعجبه فقال قصيدته التي منها:

لكـــل قبيلـــة هـــاد ورأس
وأنـــت الرأس تقدم كل هـــادِ

ومنها:

إلى ردح من الشيزى مـــــلاء
لبـــاب الـــبر يُلْبَـــكُ بالشهـــادِ

ولم يقبل في عهد الإسلام الصالحون الزاهدون عليه زهداً وورعاً، لأنه طعام لا يتاح إلا للملوك والأغنياء، وكان يقدم رشوة كما قال السريُّ الرفّاء يصف جام فالوذج ويعبث بأبي بكر الخالدي:

إذا شئـت أن تجتاح حقاً بباطل
وتغرق خصماً كـان غـير غريـقِ
فسائـل أبـا بكر تجـدْ منـه مسلكـاً
إلى ظلمات الظـلم كـل طريـقِ
ولاطفـــه بالشهـــد المخلـــق وجهـــه
وإن كـان بالألطاف غير حقيقِ

بأحمر مبيضٍّ الزجاج كأنه
رداء عروس مُشْرَبٍ بخلوقِ
له في الحشا برد الوصال وطيبه
وإن كان يلقاه بلون حريقِ
كأن بياض اللوز في جنباته
كواكب لاحت في سماء عقيقِ

ولكن تطلع الفقراء إلى الفالوذج كان شديداً، فصنع الطهاة منه رخيصاً بثمن لا يعسر على الفقراء يبيعونه في الدكاكين والأسواق، وضرب به المثل في السوء فقيل: «فالوذج السوق» وهو- كما ذكر الميداني- من أمثال المولدين، ونظم فيه ابن الحجاج الشاعر فقال:

أَعْزِزْ عليَّ بأخلاق وسمت بها
عند البرية فالوذج السوق

ولكن أصبح الفالوذج في عصرنا سهلاً ميسوراً للفقراء فلا يجهد أحد نفسه في الحصول عليه، فكل بيت بمكة يحويه وكل أسرة مكية أو مدنية تتقن صنعه.

وأما القطايف فعرفت في العصر العباسي وقبله بقليل وأشار إليها الشعراء مادحين أمثال ابن الرومي وكشاجم وغيرهم، وقال كشاجم يصف القطائف:

عنـدي لأضيافي إذا اشتد السغبْ
فطائـف مثـل قراطيس الكتـبْ
كأنــه إذا ابتـــدى من كثـبْ
كوائر النحـــل بياضـــا وثقـبْ
قـد مَجَّ دهن اللوز مما قد شربْ
وابتـل ممـا عـام فيـه ورسبْ
وجـاء مـاء الورد فيـه وذهـبْ
وغـاب في السكر عيناً واحتجبْ
فهو عليـه حبـب فوق حبـبْ
إذا رآه والـــه القلـب طربْ
أطرب منـــه إن رآه ينتهـبْ
كـــل امرىء لذتـه فـيما يحـبْ

وتفننوا في وصف القطائف تفنن من يصنعونها في صناعتها، وتبارى الشعراء في مديحها والتغزل فيها فقال شاعر:

لله درُّ قطائـــــــــف محشوة
من فستـق دعت النواظر واليدا
شبهتهـــا لمـــا بـــدت في صحنهـا
بحقـاق عـاج قد حشين زبرجدا

وقال آخر:

وقطائـــف محشوة بلطائـــفِ
طافت بها أكْرِمْ بها من طائفِ
شبهتُهـا نضدت على أطباقها
بوصائـف قامت بجنب وصائفِ

وما أعظم بهجة الشاعر الذي جمع له في مائدة بين القطائف والكنافة فقال:

وقطائـــف مقرونـــة بكنافـــة
من فوقهن السكر المـــــدرورُ
هاتيـــك تطربـــني بنظم رائـــق
ويروقـــني من هـــذه المنشورُ

أما الكنافة فحدث عنها ولا حرج، فهي زينة موائد الملوك والسوقة، وكل إليها صابٍ وبها مفتون، ولعلها أجمل ما تتزين به موائد رمضان، ويتهادى به الأحباء، وإن الكنافة ليرحل إليها من بلد إلى بلد.

ومن نفاستها يدعى غير بلد أنه صاحبها الأصيل الأول، ولكن لا دليل عند أحد، وتاريخها غير معروف بالدقة، وما دام الأمر كذلك فلا جناح على أن أزعم حتى

يأتي من يستطيع أن يثبت غير ما أقول.

وأحسب أن الكنافة انبثاقة الحضارة الإسلامية عندما بلغت أوجها الرفيع، فما يسع غير مترف أن يبتكر هذه الحلوى التي تعد عروس الموائد الفاتنة الخلوب.

وما أجد حرجاً إن زعمت أن الكنافة من أصل عربي، وأقصد الاسم لا المسمى، فأصل اشتقاقها من مادة «كنف» وما أعظم توفيق من اختار لها هذا الاسم الجميل، ففي الكنافة كل معاني هذه المادة ومشتقاتها، فمن معانيها: الظل، والصون، والحفظ، والستر، والحضن، والحرز، والجانب، والرحمة الخ.

فكنف الله: حرزه ورحمته، وكلنا يدعو الله مخلصاً أن يكون في كنفه سبحانه وتعالى، والكنافة من نعم الله، والنعمة رحمة وحرز.

ومن أكل الكنافة خف ظله، وعذب منطقه، وكثر بهاؤه، وربا لحمه، وصفا شحمه، وزال سقمه.

وأما الصون، فالكنافة تصون قوى النفس وتحفظها، وتزيد فيها، وتصون الإنسان من المكاره، وتحفظ البيوت من الهدم، بل ما أكثر ما عمرت من بيوت مهدومة.

كان لنا صديق غضبت عليه زوجته فغادرت منزله إلى بيت أهلها، وبقيت فيه شهوراً سعى خلالها المصلحون فأخفقوا، فدخل شهر رمضان المبارك، وذكر الزوج زوجته وكنافتها، وعلمت الزوجة وذكرت حب زوجها لها ولكنافتها، فبعثت إليه بصينية صنعت ما عجز المصلحون جميعاً، فما كاد الزوج يتلقاها حتى ابتهج، وحملها ومضى بها إلى بيت زوجته ليفطر معها، فما كادت تراه مقبلاً حتى هرعت إلى دهليز البيت تستقبله، وهنا كان مدفع الإفطار قد انطلق، فافطرا باسم الله على قبلة جمعت بين الزوجين.

فلولا، بعد فضل الله، هذه الكنافة ما اجتمع شمل الزوجين وعمر بيتهما.

وقصة «معروف الإسكافي» المشهورة المروية في كتاب «ألف ليلة وليلة» فلولا أن زوجته ألزمته بأن يحضر لها كنافة بعسل نحل لما صار من الأغنياء الكبار. ومن أراد القصة فعليه بألف ليلة وليلة.

وحشو الكنافة على أنواع، فأهل مكة المكرمة - حرسها الله - يحشونها جبناً لا ملح فيه، وكنافة الجبن آثر الأنواع عندهم، وأهل نابلس برعوا في كنافة الجبن حتى اشتهرت بالنسبة إليها، وعرفت بالنابلسية، ويصنعها غير

أهل مكة ونابلس، ولكن هؤلاء برعوا أكثر من غيرهم. وفي الشام ومصر ولبنان تحشى بالمكسرات: اللوز والفستق والبندق، الخ.

وتحشى بالقشدة، وتسقى بعسل النحل، وبذائب السكر المغلي على النار.

وزعم الزبيدي في تاج العروس: أن الكنافة هي القطائف، وليس بصحيح، فهما اسمان على مسميين، وبينهما خصام صوره ابن عنين فقال:

غدت الكنافة بالقطائف تسخرُ
وتقول: إني بالفضيلة أجدرُ
طُوِيَتْ محاسنها لنشر محاسني
كم بين ما يطوى وآخر ينشرُ
فحلاوتي تبدو وتلك خفية
وكذا الحلاوة في البوادي أشهرُ

وخصومة الكنافة للقطائف خصومة شريفة، لم تحملْها على الفحش من القول، وإنكار المزايا مثل أبناء آدم، يفجرون في الخصام، ويركب بعضهم بعضاً بالسخرية والنبز والهمز واللمز والشتم، ويجحد كل منهم مزية الآخر، أما الكنافة فتثبت لخصمها الحسن والحلاوة، فهل بين الناس

مثل الكنافة براً وانصافاً وعفة؟!

والكنافة- على هذا - غير القطايف، وهناك أدلة كثيرة منها أن الشاعر المصري ابن رفاعة نائب الأمير ناصر الدولة يقول في الكنافة:

وافى الصيام فوافتنا كنافته
كما تسنمت الكثبان من كثب

وفي القطائف:

أهلاً بشهر غدا فيه لنا خلف
أكْل القطائف عن شرب ابنة العنبِ
من كل ملفوفة بيض إلى آخر
حمر من القلي تشفى جِنة السغِبِ

ولو كانتا شيئا واحداً ما فرق الشعراء بينهما، وبين أيدينا الآن ما يسمى كنافة وما يسمى قطائف، مما يثبت أن قول الشيخ الزبيدي ليس صحيحاً.

ويظهر أن الكنافة كانت قبل عصر «الديمقراطية» وقفاً على الأغنياء وحدهم، وفي هذا العصر أصبحت للأغنياء والفقراء.

ومن نفاستها وغلائها وندرتها استهداها الشاعر المصري

الجزار من غني اسمه شرف الدين فقال:

أيا شرف الدين الذي فيض جوده
براحته قد أخجل الغيث والبحرا
لئن أمحلت أرض الكنافة إنني
لأرجو لها من سحب راحتك القطرا
فعجل بها جوداً فما لي حاجة
سواها نباتاً يثمر الحمد والشكرا

وما أكثر ما قيل في الكنافة من مديح، وذكرها الشعراء كما يذكرون معشوقاتهم:

ولم أنس ليلات الكنافة قطرها
هو الحلو إلا أنه السحب الغرُّ
تجود على كفي فاهتز فرحة
كما انتفض العصفور بلله القطرُ

ويقول آخر:

إليكِ اشتياقي يا كنافة زائد
فما لي غناء عنك كلا ولا صبرُ
فما زلتِ أكلي كل يوم وليلة
ولازال منهلاً بجْرعائك القطرُ

وما أكثر الذين حرموا الكنافة على شوق لا مزيد عليه عندما كانت عروس مائدة الملوك والموسرين، حتى قال الشاعر.

مـــا رأت عيـــني الكنافـــة إلا
عنــــد بياعهـــا عـــلى الدكـــان

ومن أحلى حلويات رمضان: «الكريما» وتصنع من الحليب والبيض المخفوق، وأول ما طعمتُها أنا وزملاء لي في بيت زميلنا صالح محضر، وكنا زملاء بالمعهد العلمي السعودي.

كان أول ما ذقنا «الكريما» في منزل الشيخ صالح محضر في شهر رمضان المبارك سنة ١٣٥١ هـ وكنا حينئذ طلبة بالمعهد.

وقليل من البيوت في مكة من كانوا يعرفون صنع الكريما، ومع أن أمي كانت تحسن فنوناً في الطهي وصنوف الحلوى لم تكن تعرف صنع الكريما إلا نقلاً من بيتِ المحضر المشهور في فن الطهي.

ولما كانت صناعة الكريما مما لا تحسنه البيوت ندر وجودها على الموائد[١٣].

---

(١٣) بقيت الكريما نادرة إلى ما بعد عشر سنوات على نشر هذا البحث على موائد الحجاز حتى جاءتنا الكريما «الجاهزة» فانتشرت حتى على أخونة البادية، ولكن الفارق كبير بين الجاهز وما يُبذَل فيه الجهد وما يحتاج إلى براعة وفن.

(كتبت هذه التعليقة في شهر رمضان المبارك سنة ١٤٠١ هـ).

ولكن نحمد الله في زماننا هذا كثيراً، فقد أصبحت مائدة الفقير تتزين بهذه الأطايب التي كانت وقفاً على الأغنياء.

وهنيئاً مريئاً للصائمين على ما أنعم الله به عليهم من صوم يجزى هو نفسه عليه، وبركات تفيض عليهم، ونعم لا تحصى، ومنها هذه «النعايم» التي يفطر عليها كل صائم، نعم، كل صائم بجوار بيت الله الحرام.

وموائد رمضان لا تكفيها هذه الصفحات، بل لا بد لها من أسفار ومجلدات، فلعل من الكتاب من يعنى بهذه الموائد يتحف بها القراء، فيضيف إلى المكتبة العربية كتاباً رائعاً نفيساً يتفرَّد في بابه، ولوناً جديداً هي في حاجة إليه.

وليهنأ الصائمون، وليوفقنا الله لصيام هذا الشهر الكريم صياماً نظيفاً سليماً لا تجرحه قذيفة من لسان، أو «طلقة» من يد.

والله الموفق لما نصمد له، إنه سميع.

نشر هذا البحث بمجلة «الجزيرة» التي كانت تصدر بمدينة الرياض عندما كانت ملكاً للأستاذ عبد الله بن خميس، وكان نشره بالعدد الحادي عشر، الصادر في شهر رمضان المبارك سنة ١٣٨١ هـ (فبراير ١٩٦٢ م).

مراجع البحث

١ - لسان العرب
٢ - تاج العروس
٣ - يتيمة الدهر
٤ - ديوان السري الرفاء
٥ - شفاء الغليل
٦ - قصد السبيل
٧ - محيط المحيط
٨ - المنجد
٩ - الأمثال
١٠ سمط اللآلىء
١١ - نهاية الأرب
١٢ - العقد الفريد
١٣ - المخصص
١٤ - بلوغ الارب
١٥ - ديوان كشاجم
١٦ - ديوان ابن عنين
١٧ - مجلة الرسالة
١٨ - الافصاح
١٩ - فقه اللغة
٢٠ - مبادىء اللغة
٢١ - تهذيب الألفاظ العامية
٢٢ - ديوان ابن المعتز
٢٣ - جريدة عكاظ
٢٤ - التكملة والذيل والصلة
٢٥ - ألف ليلة وليلة
٢٦ - ديوان أمية بن أبي الصلت
٢٧ - المعرب
٢٨ - الأغاني

الخاتمة

لما كان الله تبارك وتعالى قد أمر ببرِّ الوالدين، وكذلك رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وجاء في الحديث الشريف عنه صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنْتَفَعُ به، أو وَلد صالح يدعو له» فإنَّ من حق والِدَيَّ عليَّ أن أدعو لهما، لأنهما سبب وجودي وتربيتي وتعليمي.

ومع دعائي لهما أهدي ثواب الانتفاع بهذا الكتاب إلى والدي «عبد الغفور»، ووالدتي، وزوجتي «أم هشام».

رحمهم الله رحمة واسعة، وغفر لهم، وأنزلهم الفردوس الأعلى بفضله وكرمه.. آمين.

٢٧ رمضان ١٤٠١ هـ
٢٨ يوليو ١٩٨١ م.

أحمد عبد الغفور عطار
مكة المكرمة

فهرس الموضوعات